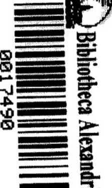
ذكريات طفولة [٢]

مارسيل بانيول



قصر أمّي

ترجمة : محمد سيف



سلسلة كتاب شرقيات للجميع (٤١)

ذكريات طفولة [٢]



Souvenirs d'enfance (2)
La Gloire De Mon Pérc
Marcel Pagnol
Editions de Fallois

ذكريات طفولة (٢)

قصر أمي

مارسيل بانيول

ترجمة: محمد سيف

الطبعة العربية الأولى ١٩٩٧



دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ش محمد صدقي، هدى شعراوي
رقم بريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت: ٣٩٠٢٩١٣ س.ت: ٣٦٩١٩٨



صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة

غلاف وإخراج: ذات حسن

لوحة الغلاف

تفصيلة من «قرية على نهر السين» ألفريد سيسلي

رقم الإيداع: ٩٦/٨٢٣٤

الترقيم الدولي: ISBN 977-283 010 8

ذكريات طفولة [٢]

مارسيل بانيول

قصر أمّي

ترجمة : محمد سيف

دار شرقيات للنشر والتوزيع

في أعقاب ملحمة صيد الحجل الملكي، تم الاعتراف بي في عداد الصيادين، ولكن كمطارد فرائس، وكلب صيد.

كل صباح، حوالي الساعة الرابعة، كان أبي يفتح باب غرفتي ويهمس : «أتريد المجيء؟».

لم يكن لشخير العم جول العالي، ولا لصيحات ابن العم بيير، الذي يصرخ طلباً لرضعته في الثانية صباحاً كل ليلة، أي قدرة على إقلاق نعاسي، وكانت همسات أبي هذه تنطرني من سريري نطراً.

كنت أرتدي ملابسي بهدوء في الظلمة، كي لا أوقظ صغيرنا بول، ثم أنزل إلى المطبخ، لأجد العم جول منتفخ العينين، في هيأة الكبار الزائغة عند صحيانهم من النوم، وهو يسخن القهوة، بينما يعبئ أبي الأجربة بالمؤن، فكنت أعبئ أنا أحزمة الخراطيش.

كنا نخرج بغير ضجة، ويعيد العم جول إغلاق الباب بإدارة المفتاح في قفله مرتين، ثم يضع المفتاح على نافذة المطبخ، التي يدفع بمصاريعها للداخل، ثم يعيد إغلاقها.

وكانت تطل بساعات الفجر الباردة. بضع نجمات ترف بوميضها الشاحب. كما كان ضباب الصباح الباكر الأبيض يوشي أطراف سهل العقاب، على حين تودع الأنجم ببعض الصيحات، بومة محزونة، من على صنوبرة العين الصغرى.

كنا نواصل الصعود طوال الفجر، حتى نصل إلى أحجار «ريدونو» الحمراء، بالسير على أطراف أصابعنا بغير أن نحدث ضجة، لأن باتيستا، ابن فرنسوا، كان ينصب الفخاخ لبلابل الشعير، بكمية كبيرة من العصي الصغيرة المصمّغة، التي كانت غالباً ما تعلق حتى بالشعر.

كنا نصل بعد ذلك، ونحن نسير في طابور هندي، إلى «حظيرة باتيست». وهي كوخ راع قديم، ينام فيه بعض الأحيان صديقنا فرنسوا مع عنزاته. وعند هذا الكوخ، تبدأ في البزوغ شيئاً فشيئاً الشعاعات الأولى للشمس الحمراء، وتطل على الصنوبر، والعرعر، والميسوج، بطول السفح الصاعد حتى قمة التاومي، فكانت تمثل أمامنا مقدمة الشعفة الفريدة، كأنها سفينة تظهر وسط الضباب.

وكان الصيادان ينزلان الوادي، يساراً جهة «الإسكاوبر»، ويمينا جهة «الجاريت» أو «الباس تون»[1]. وكنت أنا أسير بحذاء حافة الهضبة، على مسافة ثلاثين أو أربعين متراً. لأدفع نحوهم بكل ما يطير، وأنقض، إذا ما لمحت أرنباً برياً، أطارده باتجاه الحافة وأنا ألوح لهم بإشارات واضحة، كبحّارة الزمن القديم، فكانا يصعدان ليلحقا بي في عجلة، لنطارد الحيوان ذا الأذنين بلا رحمة.

ولم يحدث أبداً، أن حلمنا بطير من طيور الحجل الملكي، ولكننا، وبغير أن نتحدث في هذا، كنا نبحث عنها في كل مكان، خاصة في الخور الذي حدث فيه هذا الصيد المهيب... فكنا نزحف على بطوننا بين السنديان والوزال، مما كان يسمح لنا في غالب الأحيان بمفاجأة طيور الدراج، والأرانب البرية، وحتى حيوانات الغرير، التي كان العم جول يصعقها من على مقربة؛ أما طيور الحجل الملكي فكانت قد رحلت واختفت مع الأسطورة وظلت بها، بالطبع خوفا من جوزيف، الذي علا نجمه.

---

(١) اسم مرتفعات

صار جوزيف، باعتماده على هذا المجد، شخصاً لا يبارى، فالنجاح يصنع العبقرية غالب الأحيان. وصار لثقته في أنه لن يخطئ أبداً «ضربة الملك»، يتمكن منها كل مرة، وبسهولة ممتنعة جعلت العم جول يقول:

– إنها لم تعد «ضربة الملك» ، لقد أصبحت «ضربة جوزيف»!

لكنه هو الآخر ظل لا يبارى (كما كان يقول) في : «التصويب على مؤخرة» كل العجماوات الفارة ـ الأرانب البرية، وطيور الدراج، والشحارير ـ التي لم تكن لتفرّ بلا سبب، والتي كانت تسقط مصعوقة في اللحظة التي أتصورها صارت فيها بعيدة المنال.

وكنا نعود بكم وفير من الطرائد التي كان العم جول يبيعها. والتي دفع من ثمنها ـ وسط إعجاب العائلة كلها ـ الثمانين فرنكا قيمة الإيجار.

وكان لي نصيبي في هذا النصر، فمساء، على طاولة الطعام، قال العم :

– هذا الولد يبذل جهدا أفضل من جهد الكلب. فهو يخُبُّ في السير بلا توقف، من الفجر للغروب، ولا يحدث أدنى ضجة، ويخمن كل الأوكار! فقد دفع نحونا اليوم بسرب من الدراج، ودجاجة أرض، وخمس أو ست شحارير. فليس بنقصه شيء لكي ينبح ويكون كلبا بحق.

عندئذ، راح بول ينبح، بشكل محبب، بعد أن بصق قطعة اللحم من فمه بطبقه.

وبينما راحت الخالة روز تقرّعه مزمجرةً، كانت أمي تنظر إليّ، حالمة.

كانت تتساءل ما إذا كان معقولاً، مع سمانات قدمي الضعيفة على هذا النحو، أن أسير، كل يوم، هذا القدر.

ذات صباح، حوالي الساعة التاسعة، رحت أهرول على الهضبة التي تشرف على «بئر التوتة». وكان العم، في عمق الوادي، يترصد من وراء لبلابة كبيرة،

وأبي يختبئ وراء تعريشة من تعاريش ياسمين البر، وهما يترقبان الحافة.

وبغصن عرعر كبير ـ من الخشب الصلب رغم مظهره الناعم في اليد، لدهنيته وملاسته ـ ضربت باقات الوزال، لكن الدراج لم يكن مختبئا بها، ولا الأرنب البري الزائغ في المغارات الخفية.

مع ذلك، قمت بمهمتي ككلب صيد خير قيام، فعندما لمحت، على طرف الحافة، شيئاً يشبه المسلة، المقامة بخمس أو ست أحجار رصّت فوق بعضها بيد إنسان، حتى اقتربت منها، فرأيت أسفلها طائراً ميتاً، كانت رقبته قد انحشرت بين قوسين متماثلين لفخ وقد انطبقا عليها.

كان حجم الطائر أكبر من حجم بليل الشعير، وله عرف جميل من الريش على رأسه. وانحنيت لكي ألتقطه، عندما سمعت صوتا نديًا يهتف من ورائي : «هيه! يا صديق!» .ورأيت غلاما من عمري، ينظر لي بحدة: «لا يجب لمس فخاخ الآخرين، قال، فالفخ له احترامه!

– «أنا لم أحاول أخذه، قلت، لقد أردت فقط رؤية الطائر» .

واقترب مني، كان فلاحاً صغيراً، أسمر اللون، بوجه ذي ملامح ريفية دقيقة، بأعين سوداء، ورموش طويلة كرموش فتاة. وكان يرتدي قميصاً بنياً بأكمام طويلة مشمّرة حتى الكوعين، فوقه صدرية من صوف رمادي، على سروال قصير، وخفين من الحبال، مثل خفي، ولكنه كان بغير جوارب.

«عندما نجد طريدة في فخ، يمكننا أخذها، ولكن لابد من شد الفخ ثانية، وإعادة نصبه في مكانه» .ثم فك الطائر، قائلا : «إنه بِيدوييد» .

ووضعه في كيسه، وأخرج من جيب صدريته أنبوبة صغيرة من البوص مغلقة بسدادة ليست على مقاسها؛ ثم، صب منها على يده اليسرى نملة كبيرة مجنحة. وبحذق يعجبني، أغلق الأنبوب ثانية، ممسكا النملة بين إبهام وسبابة يده اليمنى، ثم ضغط ضغطة صغيرة بيده اليسرى فانفتحت أطراف الكلابة الصغيرة

المصنوعة من السلك المعدني والمثبتة في منتصف الفخ. وكانت أطرافها المثنية بشكل نصف دائري، تشكل، عند انغلاقها، حلقة صغيرة. ثم وضع النملة دقيقة الحجم، التي أصبحت أسيرة على هذا النحو، يعيقها جناحاها عن التراجع، وتعيقها بطنها الكبيرة عن التقدم.

وسألته: «من أين تحصل على هذه النملات؟».

– «هذه، قال، إنها «الطُّعم». يوجد منها في كل أعشاش النمل، ولكنها لا تخرج خارج العش أبداً، فلابد من الحفر بمعول أكثر من متر للحصول عليها، وإلا، وجب الانتظار حتى أول غيث في سبتمبر. فعند عودة الشمس بعده، تخرج هذه من أعشاشها طائرة. فإذا وضعنا كيساً مبلولاً على فتحة العش، يكون من السهل....».

كان قد أعاد نصب الفخ ووضعه أسفل المسلة.

وباهتمام شديد للغاية، راقبت العملية، وحفظت كل تفاصيلها، ونهض هو أخيرا، ثم سألني: «من أنت؟».

ولكي يطمئنني، أضاف:«أنا، أنا أدعى لِيلي، وأقطن في البراري»

– أنا أيضا، قلت، أنا من البراري.

فطفق يضحك:«أوه، بالطبع لا، أنت لست من البراري! أنت من المدينة. ألست أنت مارسيل؟

– نعم، قلت، مزهوا، أتعرفني؟

– أنا لم أرك أبداً، قال، ولكن أبي هو الذي نقل أمتعتكم. وقد حدثني عنك. أليس أبوك هو صاحب البندقية عيار ١٢، وهو الذي اصطاد الحجل الملكي؟» وصرت في حالة من الزهو الشديد:«نعم، قلت، إنه أبي.»

– وهل ستحكي أنت لي؟

– ماذا؟

– حكاية الحجل الملكي، هل ستقول لي أين وقعت، وكيف تمكن منها، وكل القصة؟

– أوه! طبعاً...

– بعد قليل، قال، عندما أتم جولتي... كم عمرك؟

– تسع سنوات.

– أنا عمرى ثمانية، قال، هل تنصب الفخاخ؟

– لا، فلست أعرف.

– إذا شئت، سأعلمك.

– أوه نعم! قلت بسرور.

– تعال معي، أنا أقوم بجولة على فخاخي.

– لا أستطيع الآن، فأنا أدفع الطرائد نحو أبي وعمي، وهما مختفيان في قاع الوادي، وعليَّ أن أطارد لهما الدرّاج.

– الدرّاج، لن يكون هنا درّاج اليوم.... ففي العادة يكون منها هنا ثلاث أسراب. لكن الحطابين مروا هذا الصباح وأخافوها. ورحل سربان منها ناحية «الجاريت»، وهبط الثالث جهة «الباس – تون»... ولكن ربما أمكننا أن ندفع لهما بالأرنب البري الضخم، فلابد أنه هنا، لأنني رأيت «بيتولييي».

وكان يقصد شريطاً من روث الأرنب.

وأخذنا في المرور على الفخاخ، ونحن نضرب الأحراش أمامنا لنزيحها.

وجمع صديقي عدداً من طيور «أبيض العجيزة» التي يطلق عليها الفرنسيون «طيور المدر» ، وطائرين آخرين من «البيدوييد» (التي شرح لي أنها «نوع من القبرات») وثلاث «دارناحات».

-«أبناء المدن يطلقون عليها «ذات المنقار المعقوف». لكننا نحن سميها «الدارناجا» ، لأنها طيور بلهاء... فلو كان منها طائر واحد فحسب في كل الأنحاء. ونصبت أنت فخاً واحداً فقط، يمكنك التأكد من أن الدارناجا سيعثر في هذا الفخ، وسيشنق به نفسه.... كما أنه لذيذ في الأكل. أضاف. ثم صاح! انظر، هاك عجماء بلهاء ثانية.

وجرى ناحية مسلّة ثانية والتقط سحلية رائعة. كان لونها أخضر زاهياً، وكانت منقطة بنقاط صغيرة مذهّبة على كشحها، وعلى ظهرها، المنقوش بأهلّة زرقاء زرقة الألوان المائية. وأزاح ليلي هذه الجثة الجميلة، ورماها في الأدغال، التي جريت لكي ألتقطها منها.

«أتعطيها لي؟»

وراح يضحك

-«وماذا تريد مني أن أفعل؟... يقال إن الأقدمين كانوا يأكلونها، وإنها على ما يبدو لذيذة جداً. لكننا نحن، لا نأكل الحيوانات الباردة. وأنا على يقين من أنها سامة...»

ووضعت السحلية الجميلة في كيس، ولكني رميتها بعد عشرة أمتار من السير، لأن الفخ التالي كان قد التقط واحدة أخرى. كانت في طول ذراعي تقريبا، وأكثر لمعاناً من الأولى. وتلفّظ ليلي ببعض السباب بلهجته الريفية، وتضرع إلى القديسة العذراء أن تحميه من هذه «الأرواح الهائمة».

«ولكن لماذا؟ قلت»

- «ألم تر أنهم يقفلون فخاخي؟ فعندما يطبق الفخ على سحلية، لن يمكنه بعدها أن يصطاد طيراً. وهذا يعني أن فخًا قد نقص!»

وجاء بعد ذلك دور الفئران. التي «أقفلت» فخين. وكانا فأرين ضخمين أزرقين. ذوي جلد شديد النعومة، وغضب ليلي ثانية. وأضاف:

-«بهذه كان جدي يصنع اليخنة، فهي حيوانات نظيفة. تعيش في الهواء الطلق، وتأكل البلوط والجذور والبرقوق... وأحشاؤها نظيفة كأحشاء الأرنب، إنها فقط فئران، وهذا....» وبرطم برطمة تقزز صغيرة.

وكانت الفخاخ الأخيرة قد التقطت أربعة دارناجات وقندُس.

-«هو، هو! صاح ليلي. طير عقعق!.. ماذا يفعل هنا؟ لقد التهم طعماً كاملاً! لابد أنه أغبى بني جنسه، لأنه....». وتوقف كلية عن الكلام، وأشار بأصبعه على فمه علامة الصمت، ثم أشار بيده ناحية أكمة بعيدة مس الورّال.

-«هناك شيء يتحرك داخل هذه الأكمة، هيا نرى ما هو، ولا تحدث ضجة». وانطلق بخطوة ناعمة صامتة، كان فيها يشبه الكومانش الحقيقي بغير أن يعرف.وتبعته. لكنه أشار لي بأن أتّجه جهة اليسار، وأصنع معه قوس دائرة. ومشى هو في اتجاهه بغير تعجل. وهرولت أنا لكي أنفّذ معه مناورة الحصار.

وبعد عشر خطوات، قذف حجراً، وقفز في الهواء بضع قفزات، فارداً ذراعيه، وهو يصيح صيحات بربرية. وقلّدته، ورأيته فجأة يجري، ورأيت أرنباً برياً ضخماً يخرج من الأكمة، قافزاً، وأذناه المدببتان مسددتان للأمام، وكان سمينا بحيث كانت بطنه لا يبين أسفلها في ضوء النهار لاكتنازها. ونجحت في قطع الطريق عليه، فانحرف جهة الحافة، وغطس في أحد المنافذ. وأسرعنا نحو حافة الهضبة، وشرعنا في النزول خلفه والتسلل أسفل أدغال الوادي، وسمعنا لهاثه. وقعقع دوي طلقتين واحدة وراء الأخرى. ثم دوي طلقتين أخريين.

—«عيار ١٢ هو الذي أطلق الطلقتين الأخيرتين، قال ليلي، لنذهب ونساعدهم في العثور على الأرنب البري» .ونزل بخفة البجعة على المنحدر.

«إن هذا المنحدر يبدو ممراً سيئاً، قال، ولكنه جيد كأنه سلم» .

وتبعته. وبدا عليه كخبير عارف تقدير لخفّتي.

—«بالنسبة لشخص من المدينة، أنت تتصرف جيداً» .

وتسابقنا على المنحدر، أسفل الصخور.

كان هناك مسقط ضوء صغير في الظل إلى جوار الآبار، وتحت الصنوبرات الكبيرة، كان أبي وعمي عنده ينظران إلى الأرنب البري الممدد ؛ واستدارا ناحيتنا مزهوين. فسألت ببعض الخجل :«من الذي قتله؟»

– نحن الإثنين، قال العم. لقد أصبته مرتين، لكنه ظل يجرى، وتمكنت طلقتا أبيك من صرعه في مكانه... فهذه الحيوانات، تحتمل بسهولة طلقات البنادق» .

قال هذا بطريقة توحي بأنه يتوجب احترامهما لفعلهما بتزرير السترة، أو بارتداء قبعة منفوخة. وبعد ذلك نظر إلى صديقي الجديد :

– آهاه! إن لدينا صحبة!

– أنا أعرفه! قال أبي، ألست ابن فرانسوا؟

– نعم، قال ليلي. لقد رأيتني بالبيت، في عيد الفصح.

– ويبدو أنك صياد شهير، فهذا ما قاله لي أبوك.

– أوه! قال ليلي المحمر من الخجل. أنا أضع الفخاخ للطيور...

– وهل اصطدت الكثير منها اليوم؟

ونظر ليلي حولنا نظرة سريعة دائرية، ثم أفرغ كيسه على العشب، وتملكني الإعجاب. فقد أفرغ ثلاثين طائراً.

-«أتعرف، ليس هذا صعباً جداً، قال. فأصعب ما في الأمر هو الحصول على «الطُّعم». وأنا أعرف صفصافة في أسفل الوادي الكبير... فإن لم تكن مشغولاً، غداً صباحاً، نذهب معا نجيء ببعض الطعوم من هناك، لأنه لم يبق الكثير».

وتفحَّص العم مشهد طرائد الفتى الصغير.

«أو هوه! قال، إنه يتحدانا برقَّة. أنت إذن صياد مخالف حقيقي؟»

فأجاب ليلي بدهشة:«أنا؟ أنا من البراري!».

وطلب منه أبي أن يشرح معنى هذه الإجابة.

-«معناها أن هذه التلال ملك أهالي المنطقة. وهذا يعني أننا لسنا صيادين معتدين!». وكانت وجهة نظره شديدة البداهة، فكل الصيادين المخالفين بقرية الكرمة هم صيادون شرعيون، على حين أن صيادي منطقة الألاووش» والمدينة هم المعتدون.

وتناولنا غداءنا على العشب. وكانت المحادثة مع ليلي هامة لنا بالفعل، لأنه كان يعرف كل الوديان، وكل الأخوار، وكل الممرات. وكل حجر في التلال. الأكثر من هذا أنه كان يعرف مواعيد وسلوكيات الطرائد، لكنه في هذا الخصوص، بدا لي متحفظاً بعض الشيء، فقد كان يجيب أحياناً على أسئلة العم جول، بطريقة مراوغة، وبابتسامة صغيرة خبيثة.

قال أبي: إن ما ينقص كثيراً في هذه المنطقة، هو الينابيع.... فهل نوجد، فيما عدا بئر التوتة، ينابيع أخرى؟

– «بالطبع!» قال ليلي. ولكنه لم يضف شيئاً.

– يوجد نبع بمغارة «الباس ـ تون»، قال العم. وهو مبين بالخريطة العسكرية.

– هناك أيضا نبع «الإسكاوبر». قال ليلي. وهو الذي يسقي أبي فيه عنزاته.

– أجل وهو الذي رأيناه نحن منذ عدة أيام، قال العم.

– من المؤكد أن هناك ينابيع أخرى، قال أبي، فمن المستحيل ألا تكون مياه المطر متجمعة بأماكن ما، في مساحة واسعة بهذا الشكل.

– ربما كان المطر قليلا هنا، قال العم.

– غير صحيح، فهي تمطر في باريس ٤٥ سنتيمتراً في العام. وتمطر هنا ستين.

ونظرت إلى ليلي نظرة مزهوة، وغمزت له غمزة صغيرة لأنبهه إلى الإحاطة العلمية الأبوية. لكنه لم يبد عليه أنه فهم قيمة ما قيل. وتابع أبي :

–«فبما أن أرض الهضبة تتشكل من بلاطات صخرية غير ماصّة للماء، يبدو لي أنه من المؤكد تماماً، أن تدفقاً لا بأس به من الماء، لابد وأن يتجمع في الوديان، بجيوب تحت أرضية، ومن المحتمل جداً أن بعض هذه الجيوب تفيض وترشح في الأماكن الأكثر انخفاضاً. هل أنت على علم أكيد بوجود ينابيع أخرى؟

– أنا أعرف سبعة، قال ليلي.

– «وأين هي؟»

وبدا الفلاح الصغير متحرّجاً بعض الشيء، لكنه أجاب بوضوح:

«هذا الأمر ممنوع الحديث فيه».

ودهشنا، أنا وأبي: «ولماذا إذن؟»

واحمر ليلي، وبلع ريقه، ثم أعلن:لأن الينابيع ليست موضوعاً للحديث!

– ما هذا المذهب؟ صاح العم.

– هذا أمر بديهي، قال أبي، ففي مواطن الجفاف، يعد النبع كنزاً.

– ثم إنهم، قال ليلي بسذاجة، لو عرفوا بالينابيع، لتمكنوا من الشرب!

– من هؤلاء؟

– أهل «الألاووش». أو «البيبان». ومن ثم سيأتون للصيد هنا كل يوم! وانتعش بغتة :«ثم، سيأتي كذلك هؤلاء الحمقى الذين يجيئون للتنزُّه... فهم منذ أن عرفوا بوجود نبع «الرجل ـ الصغير»، يأتون من حين لآخر بالعشرين على الأقل... وهذا يزعج الدرَّاج أولا ـ ثم إنهم سرقوا كل عنب كرمة شامبرت ـ وكذلك، فإنهم عندما يسكرون، يتبوَّلون في بعض الأحيان في البئر. وذات مرة وضعوا لافتة كتب عليها : «لقد تبولنا في البئر!»،

– لماذا؟» سأل عمي.

وأجاب ليلي، بنبرة طبيعية للغاية:

–«لأن شامبرت أطلق عليهم طلقة بندقية.»

– طلقة حقيقية؟ سألت.

– نعم، ولكنها كانت رصاصة صغيرة، أطلقها فوق رؤوسهم... فلم يكن قد تبقّى لديه سوى شجرة كرز واحدة، وقد سرق هؤلاء كل كرزاته! قال ليلي بسخط. وعلق أبي بأنه كان عليه أن يطلق عليهم الرصاص في المليان!

– هذه هي الأخلاق البربرية! صاح عمي.

– إنهم هم البرابرة! قال ليلي بحدة. فمنذ عامين، وعند شوائهم للحم. أشعلوا النار في غابة صنوبر حظيرة «موليت»! ولحسن الحظ كانت غابة صغيرة، ولم تمتد منها النار إلى ما عداها! لكنهم لو فعلوا هذا في وادي الباس ـ نون لكم أن تتخيلوا ما سيحدث!

– طبعا، قال أبي، إن سكان المدن خطرون، فهم لا يعرفون شيئا...

– عندما لا نعرف شيئا، قال ليلي، يكون علينا البقاء في البيوت.وأكل القطعة الكبرى من البيض بالطماطم.

–«لكننا نحن لسنا متنزهين. ولا نوسخ الينابيع، ويمكنك أن تقول لنا أين هي.

– بودي لو أفعل هذا، لكنه أمر محظور، حتى بين العائلات المقيمة، فهذا شيء لا يقال.

– بين العائلات المقيمة، قال أبي، هذا شيء مغالى فيه.

– ربما كان مغالى فيه، قال العم.

– أوه! لا! إنها الحقيقة! فلم يكن سوى جدي من يعرف بهذا. وهو لم يرغب أبدا في البوح به لأحد...

– إذن، فكيف عرفت به أنت؟

– لأنه كان لدينا حقل صغير، في نهاية الباس ـ تون. وكنا نذهب أحياناً للحرث، وزرع القمح الأسمر. وعند الظهيرة، في ساعة الطعام، كان جدي يقول لي: «لا تنظر إلى أين أذهب! ثم كان يمضي بقنينة فارغة».

وسألته:«وأنت ألم تكن تنظر؟»

– «آه أيتها الربة الطيبة! لقد كان بمقدوره قتل كل الناس! ولذا، كنا نظل جالسين على الأرض نأكل، بغير أن نحيل بصرنا ناحيته. وبعد لحظة، كان يعود بالقنينة مملوءة بالماء البارد».

وسأل أبي :«ألم تعرفوا أبداً شيئا على الإطلاق؟»

– على ما يبدو أنه حين مات، حاول أن يقول السر... فطلب أبي وقال له:«فرانسوا، النبع... النبع...» ولكنه.. تَكْ، مات... كان قد انتظر طويلاً أزيد من اللازم. وحاولنا نحن عبثاً أن نبحث عن هذا النبع، ولكننا لم نعثر عليه أبداً. وهذا يعني أنه نبع مفقود...

– هاكم حالة تبديد غبية، قال العم.

– أينعم، قال ليلي بحزن، ولكن، ألا يكون، ربما، يروي بعض الطيور؟».

بصداقتي مع ليلي، بدأت حياة جديدة لي. فبعد القهوة الصباحية بالحليب، وعند خروجي في الفجر مع الصيادين، كنا نقابله جالساً على الأرض، تحت التينة، يعمل في تجهيز فخاخه.كان لديه ثلاث دستات منها. واشترى أبي لي أربعا وعشرين من بائع بسوق «أوبان»، كان يبيعها مراءاة على أنها «فخاخ فئران».

وقد ألححت بشدة للحصول على بعض الفخاخ من حجم أكبر، مصنوعة خصيصا لـخنـق الدراج.

«لا، قال أبي. سيكون من الغش أن نفخّخ لطريدة رائعة بهذا الشكل».

وأعلنت وقتها احتجاجي على نزاهة بندقيته التي تصعق على غرة هذه الطيور الذاهلة.« كما أن الدراج، يمكنه تجنُّب الفخ، لأنه ذكي، ومراوغ، وقد يتمكن أيضا من الإفلات منه...

– نعم، ربما، قال أبي، لكن الفخ ليس سلاحاً نبيلاً على أية حال... ولدي أيضاً سبب آخر، فهذا النوع من الفخاخ قوي جداً بالفعل، وقد ينكسر لك بسببه إصبع!».

وأثبتت له في التو أنني أعرف كل الطرائق بسهولة تامة، لكي أرغمه على الرضوخ، ولأنني ألححت ثانية، انتهى إلى أن قال لي بصوت خفيض :

«ثم إنها، غالية جداً».

وتظاهرت بأنني لم أسمع، وانطلقت وأنا أصيح صيحة فرح، باتجاه نبلة كبيرة، فاشتراها لي بثلاثة قروش.

وأظهرت «فخاخ الفئران» التي لم تكن تزيد في حجمها عن حجم الأطباق، قدرة حاسمة، فكانت تطبق على رقاب الطيور بعصبية شديدة، بحيث لا يمكن للشحارير الكبيرة أن تفلت منها.

كنا ننصب فخاخنا في الأرض، ونحن نقوم بدفع الطرائد باتجاه الصيادين، على طرف الحافة، أو على بعض الأغصان البرية، التي كنا نكسرها لنفرشها، حتى في قلب أشجار البطم التي كان ليلي يدعوها «البمط».

تلك الأشجار التي شاع ذكرها في القصائد الرعوية، وتزهر عناقيد من الحبوب الحمراء والزرقاء، تشتهيها كل الطيور، بما يجعل أي فخ ينصب في بطمة، يعني الصيد المؤكد لطائر من فصيلة الدخليات، أو لشحرور، أو لشرشور أخضر، أو لبلبل من بلابل الشعير.

وكنا نضع فخاخنا هذه بالصعود إلى قمم الأشجار، طوال فترة الصباح، ثم كنا نتوقف أربعتنا لتناول الغذاء بالقرب من أحد الينابيع، في ظل غابة من غابات الصنوبر.

وكانت أجربتنا دائماً حسنة التموين، ولكننا كنا نأتي عليها كلها بشهية.

وأثناء ما كنا نتناول البيض بالطماطم ـ الذي يصبح لذيذا وهو بارد ـ نقوم بعمل الشواء على أحطاب إكليل الجبل. وكان العم جول، في بعض الأحيان، يسحب بندقيته، وفمه مليء بالطعام، ليطلق النار جهة السماء، من خلال الأغصان، على شيء لم يلمحه أحد، فكانت تسقط فجأة يمامة، أو صفّارية، أو صقر...

وعندما كان لا يتبقى سوى عظم اللحم، وقشر الجبن، كان الصيادان يتمددان على فرشة من أعشاب «الباووكو»، لراحة القيلولة، وعلى وجه كل منهما منديل يغطيه، بسبب الذباب الصغير، وكنا نحن نصعد باتجاه الحافة للجولة الأولى على فخاخنا.

كانت لدينا معرفة جيدة بالأماكن، والأشجار، والشجيرات، والأحجار. وكنت ألمح في التو ومن على البعد، ما إذا كان فخ من الفخاخ لم يعد في مكانه، فكنت أنطلق بتلهف المطارد الذي يتوقع أن يجد سموراً قتيلاً أو ثعلباً مفضض اللون.

وكنت أكتشف الطائر المختنق دائماً تقريباً، تحت شجرة، أو بالقرب من ثلة من الأحجار. ولكن عندما كنا لا نجده، كانت استثارتنا تبلغ قمتها، بمثل ما يحدث للاعب اليانصيب الذي تأكد تواً من كسب أرقامه الثلاثة الأولى، ويترقب سحب الرقم الرابع.

فكلما كان الفخ بعيداً أكثر عن مكانه، تكون الطريدة التي اصطادها أكبر. فكنا نزيح الأحراش التي تلتف في دوائر حول الفخ.

وكنا نجد الصيد في أغلب هذه الحالات عبارة عن شحرور جميل، أو بلبل شعير سمين من بلابل الألب، أو حمامة برية، أو سمانة، أو طائر «أبوزريق» ...

بعض المرات لم نكن نجد الفخ، الذي يكون قد اختطفه في هذه الحالة

صقر بالطريدة التي فيه، بعد أن اجتذبت اللص إليه سكرات النزع الأخير لأجنحتها.

مرات أخرى، وكان ذلك استثناءً هزليا، كنا نجد بالفخ فأراً كبيراً، أو سحلية ضخمة، أو أم أربع وأربعين كبيرة عسلية اللون. وذات يوم، بعد بحث طويل مليء بالأمل، وجدنا الفخ قد تصيّد بومة بيضاء، كانت تنط عالياً على قدميها الصفراوين، نافشة كل ريشها، والفخ مطبق على رقبتها. وبينما هي نصف مختنقة تزفر أنفاسها. راحت ترمقنا بقسوة، وهي تجحظ عينيها اللتين غطاهما الريش. وعندما اقتربت منها، ببعض الحذر، قفزت فجأة قفزة غريبة، فقد رفعت قدميها عاليا إلى مستوى الفخ العالق برقبتها، والذي كان يطبق عليها بشدة، ثم سقطت ثانية على عجزها. وكان يمكنها أن تزيح الفخ عنها بالفعل، إذا أمسكت فقط بفرع من فرعيه. لكنها أطبقت الاثنين معاً، على رقبتها الهشة، التي ماتت بالفعل. وتحت سكرات الموت فتحت منقارها، واستجمعت عند ذلك كل قواها الأخيرة، ودفعت بعنف بالفخ، فانقطعت رأسها بضربة واحدة.

وكان على كرة الريش هذه، التي طارت في الهواء، أن تصدق أنها لن تطير، وأنها ستسقط على الحصى، منقارها في الهواء، وعيناها جاحظتان من الدهشة.

فيما بعد، بالمدرسة الثانوية، علّمنا الأستاذ لوبلان. أن البومة طائر قوي الرقبة، وأنه يمثل الحكمة، وصدرت عني يومها ضحكة عالية، كلفتني أن أنسخ، انتهاء باسم الفاعل، أربعة أفعال متعدية.

عقب انتهاء الجولة الأولى، كان يتوجب علينا الانتظار حتى الساعة الخامسة أو السادسة، لكي نترك فرصة الوقت لفخاخنا كي «تعمل».

وكنا، خلال بعد الظهر، نذهب لنستكشف الأخاديد، ونقطف «فلفل الثوم» من «الإسكاوبر»، أو «اللافندر» من «التاومي». لكننا كنا في أغلب

الأحيان نتمدد تحت صنوبرة بين الأحْراش ـ فمثلنا مثل الحيوانات الوحشية، كنا نرغب في أن نراقب المكان ونحن في الخفاء ـ لنثرثر معا، بصوت خفيض بالساعات.

كان ليلي يعرف كل شيء ؛ تعيين الوقت، والينابيع الخفية، والأخوار التي يوجد بها الفطر، والشيكوريا، وأشجار الجوز، والبرقوق البري، والفراولة البرية ؛ وكان يعرف، في عمق الدغل، على بعد خطوات، مكان بعض شجيرات العنب التي نجت من الآفات، ونضجت بها في عزلتها عناقيد حامضة، لذيذة الطعم، وكان يعرف كيف يصنع من بوصةٍ مزماراً بثلاثة ثقوب. وكان يأخذ غصناً جافاً من ياسمين البر، ويقطع منه الجزء الذي بين العقلات، وفي خطايا الأفرع الخفية الألف لطرق الغابة، كنا نتمكن من تدخينه كالسيجار.

وقد عرّفني على أشجار العنّاب العجوزة بتلّ «البوندران»، وعلى أشجار «الغبيراء» بجبل «روبو» الصغير المنعزل، وعلى التّينات الأربع بجبل «البريكاتوري»، وعلى الفراولة البرية بوادي «الجاريت»، وفي شعفة «الرأس الحمراء» أراني الحجر المغني.

كان هذا الحجر على طرف الحافة مباشرة، وهو على هيئة عمود صغير من الصخر، مثقب بالثقوب والقنوات، وكان يصفر وحده، في الصمت المشمس، بحسب اتجاه الريح.

كنا نتمدد على بطوننا في عشب «الباووكو» بين السعتر، كل منا إلى جانب من الحجر، ونحن نحتضنه بأذرعنا ؛ ونلصق آذاننا بالصخرة المصقولة، نتسمع إليها ونحن مغلقون أعيننا.

كانت الريح الخفيفة تجعلها تقرقر ضاحكة، لكنها لو اشتدت عليها، تجعلها تموء كقطة تائهة. ولم نكن نحب الريح الممطرة، التي كانت تصدر عنها بسببها التأوهات، ثم همهمات القلق. ثم تتحول بعد ذلك إلى ما يشبه بوق

الصيد القديم المحزون الذي يطن طنيناً طويلاً في الغابة المبتلة.

وعندما كانت تهب ريح (الجن)، كانت تصفر بموسيقى حقيقية. فكنت تسمع جوقات المغنيات اللابسات مثل المركيزات، اللواتي تبعثن الشعور بالجلال، ثم تسمع ناياً من الزجاج. ناياً دقيقاً مدبباً يصحبه، من الأعالي، عبر السحب، صوت فتاة صغيرة تغني على طرف جدول من جداول السماء.

ولم يكن ليلي العزيز يرى شيئاً من هذا، وعندما كانت الفتاة الصغيرة تغني، كان يعتقد أنها بلبل، أو في بعض الأحيان بلبل شعير. ولكني لم أكن أعتبر عدم وجود أذن موسيقية لديه عيباً فيه، وكنت أكن له إعجاباً كبيراً طول الوقت.

وفي إطار تبادل الأسرار، كنت أقص له عن المدينة، والمحلات التي يوجد بها كل شيء، ومعارض لعب عيد الميلاد، ومهرجانات المشاعل، وسحر مدينة الملاهي، التي كنت قد ركبت فيها العربات الميكانيكية الدوارة، وقلدت له صوت دوران عجلات الحديد الزهر على القضبان، وصيحات وصرصرات العابرين، وكان ليلي يصيح أثناء ذلك معي.

أضف إلى ذلك أنني استنتجت أنه، لجهله، كان ينظر لي باعتباري حكيماً عارفاً، وقد سعيت بجهد لكي أعزز لديه هذا الرأي ـ المضاد تماماً لرأيي ـ بمآثر الحسابات العقلية، المعدة على نحو هادئ، فقد وجدت لزاماً عليّ أن أعلمه جدول الضرب حتى حِسْبة ثلاثة عشر في ثلاثة عشر.

بعد هذا أنعمت عليه ببضع كلمات من مجموعتي، بادئاً بالكلمات الأبسط مثل: كومة، لسان جزمة، ابتزاز، وأرض مستريحة، ثم أضفت حفنة من الكلمات الحريفة الشائكة لأخطف إعجابه بادئاً بكلمة خصيٌ. ثم أتبعتها بكلمات مثل ماسح جوخ، عَلَقَةْ، وقاحة، والكلمة المحبوبة: مطلق الصلاحية، وهو اللقب الذي كنت أسنده (خطأ) إلى عريف الدرك.

وأخبراً. نسخت له ذات يوم، على طرف ورقة كلمة : لا دستوري. وعندما تمكن من قراءتها شكرني جداً، وهو يقر بأنه لن يستخدمها في حديثه. الأمر الذي لم يسبب لي أي غيظ. فلم أكن أهدف إلى زيادة قاموس كلماته، وإنما إلى زيادة إعجابه بي عن طريق الكلمات.

مع ذلك، كانت محادثاتنا تلف وتعود دائماً إلى الصيد. فكنت أعيد على مسامعه قصص العم جول، وأنا عاقد ذراعي، في أغلب الأحيان، ومستند إلى صنوبرة، أمضغ إكليلاً من النيسون. فكان يقول لي بجد واهتمام شديدين: «احك لي ثانية حكاية الحجل الملكي....».

لم يحدث أبداً أن كنت سعيداً بهذا الشكل في حياتي، لكن شعوراً بتأنيب الضمير كان ينتابني وأنا في التلال، لأنني أهملت بول الصغير. ولم يكن هو يشكو من هذا الأمر، لكنني كنت أنا الذي يشعر بهذا، فقد كنت أتخيل وحدته. وهو ما دعاني لأن أقرر اصطحابه معنا ذات يوم.

في المساء الذي سبق ذلك اليوم، أعلنت الصيادين أنني أنا وليلي لن نذهب معهما في الصباح الباكر، وإنما سنذهب متأخرين، وأننا سنلحق بهم في مغارة الباس ـ تون، التي نتناول فيها الغداء.

وبدا عليهم الإحباط لهذا التخلي عنهم، وحاولا ـ عبثاً ـ إثنائي عن هذا القرار. وبغير أن أقول شيئاً، كنت أتلذذ في صمت بانتصاري، فالذين رفضوا إشراكي في افتتاح الصيد، هم أنفسهم الذين صاروا يأسفون على غيابي، لأنني أصبحت شيئاً لا غنى عنه... وعلى هذا النحو تماماً كانت سعادة الأمريكيين، عندما دعوناهم لنجدتنا، بعد أن طردوا أسلافهم بذرائع السياسات والأديان.

في الصباح، حوالي الساعة السادسة، اصطحبنا بول، الذي كان مازال ناعساً، ولكنه كان فرحاً بالمغامرة، وكان يسير بشجاعة بيننا.

وعند وصولنا إلى «العين الصغرى»، وجدنا الفخ الأول قد اقتنص شرشورا،

وخلصه بول من الفخ في التو، وتأمله للحظة، وغرق في الدموع وهو يصيح بصوت مختنق:«لقد مات! لقد مات!»

– هذا طبيعي، قال ليلي، فالفخاخ تقتل الطيور!

– لا أريد هذا، لا أريد هذا! لابد من بعثه!...»

وحاول أن ينفخ في منقار الطائر، ثم قذف به في الهواء ليساعده على التحليق... لكن الشرشور المسكين سقط بثقله على الأرض، كما لو لم تكن له أبدا أجنحة... عندها، راح الصغير بول يجمع أحجاراً من الأرض، ويقذفنا بها وهو في حالة من الهياج جعلتني أمسكه بين ذراعي، وأعيده للمنزل.

وأبلغت أمي بأسفي لاضطراري لتركه.

«لا تقلق بشأنه، قالت لي، فهو مولع بشقيقته الصغيرة، وله صبر شديد عليها، فهو يلازمها طيلة اليوم، أليس كذلك يا بول؟

– «نعم يا أمي!»وكان يرعاها، بالفعل.

فقد كان يربط بشعرها الناعم المجعّد، حفنة من الصراصير والحشرات التي يدوّي أزيزها حول رأس الطفلة، التي تضحك، شاحبة من الخوف، أو كان يجلسها على ارتفاع مترين من الأرض، على شعاب شجرة زيتون، ويتظاهر بإهمالها في وضعها التعس هذا ؛ وذات يوم، لخوفها من النزول، تسلقت حتى الأفرع العليا، ورأت أمي ما أصابها بالهلع من على البعد، فقد لمحت وجه الطفلة أعلى الأوراق الفضية... وهرعت تبحث عن سلم مزدوج، وتمكنت بمعاونة الخالة روز، من الإمساك بها، كما يفعل أحياناً رجال المطافئ مع القطط المغامرة. وأكد بول «أنها هربت منه» وصار ينظر للأخت الصغيرة من حينها كما لو أنها قرد قادر على التزلقات الخطرة.

في بعض المرات، كان يدفع بها فوق الورود البرية لشجرة النسرين، التي حققت سمعتها من تباكيها الذي لا يعرف سببه.

وكان يهدئ من روعها بأن يلقمها صمغ اللوز، بل إنه جعلها تأكل قرصاً، قال لها إنه عرق السوس، ولم يكن سوى براز أرنب. وقد أسر لي بهذا الفعل في مساء اليوم نفسه، لأنه اعتقد أنها قد تسممت.

وقد اعترفت له عندئذ بأنني نفسي قد أطعمته هو زيتونا أسود دافئاً، جَمَعْتُهُ من وراء قطيع من الماعز، وأنه وجده لذيذاً جداً، وقد استظرف هذا الاعتراف المطمئن، واستمر معها في عمليات حشوه الأخوية بلا ندم.

ولكن، وكما علمني شكسبير العظيم فيما بعد، ستظهر الجريمة، أي أن الجريمة لن تظل دائماً مجهولة، فذات مساء بعد الصيد، وجدته في غرفتنا، يبكي على مخدته بحرقة.

فقد اخترع، في هذا اليوم القاتل، لعبة جديدة كانت قاعدتها شديدة البساطة... فقد قرص بشدة الفخذ السمين لأخته الصغيرة، التي صرخت في الحال صرخات حادة. عندها جرى بول كالتائه، إلى البيت: «ماما، تعالي الحقي! لقد قرصها دبور!».

وهرعت أمنا مرتين بالقطن والأمونياك، وحاولت أن تعصر، بين أظفريها، ثقب وخزة لم يكن موجوداً، الأمر الذي ضاعف من نعير الأخت الصغيرة، وأسعد بول الحساس كثيراً.

لكنه ارتكب الخطأ الكبير عندما أعاد مزحته الأخوية مرة أخرى. وضبطته أمي، التي كانت تشك في الأمر، متلبسا بالفعل، فتلقى صفعة متقنة، تبعها بضع ضربات بالسوط، قبلها بغير تذمر، لكن التوبيخات المؤثرة التي أعقبت هذا حطمت قلبه، وحتى السابعة مساء، كان مازال، بعد، شديد الحزن. وتم حرمانه

على العشاء من الحلوى، في الوقت الذي قامت فيه الأخت الصغيرة المستشهدة والشاكرة بالتنازل له عن نصيبها الخاص من «الكريم كرامل»، وهي تبكي من الرقة.

وقد وضح لي بهذا الشكل أنه لن يشعر بالضَّجَر لثانية واحدة، مما جعلني أنتصر بسهولة شديدة على ندمي، وأتركه لألعابه الإجرامية.

◊ ◊ ◊

ذات صباح، شرعنا في السير تحت سماء غائمة، كانت محمرة بعض الشيء من جهة الشرق، وغاطسة حتى القمم الصخرية. وكانت نسمة خفيفة باردة، آتية من جهة البحر، تدفع بالسحب القاتمة ببطء. وقد أرغمني أبي يومها على أن أرتدي فوق قميصي، سترة ذات أكمام، وأن أضع على رأسي كاسكيتا.

وجاء ليلي مرتدياً بيريها على رأسه.

فنظر العم إلى السماء، ثم أفتى: «إنها لن تمطر وهذا الجو ممتاز للصيد!»

وغمز لي ليلي بعينيه، وقال بصوت خفيض :

«لو كان له أن يشرب ما ستمطره، فإنه سيظل يبول حتى عيد الميلاد!»

وبدا لي هذا التعبير لطيفاً، فأسر لي ليلي، ببعض الفخر، أنه قد تلقنه من أخيه الأكبر باتيستا.

ومر الصباح على نحو عادي، لكن في حوالي العاشرة، باغتتنا زَخَّةُ مطر قرب حافة التاومي. واستمرت عشر دقائق، واحتمينا منها تحت الأغصان الكثيفة

لصنوبرة كبيرة. وانتهز أبي فرصة هذه الراحة ليعلمنا أنه لا يجب اللجوء في أية حال لحمى شجرة. وقد تمكنا من الذهاب بعد ذلك إلى مغارة «سورن»، عندما توقفت عاصفة الرعد، وتناولنا غداءنا بها.

في طريقنا نصبنا خمسين فخاً، وقنص الصيادان أربعة أرانب وستة دراريج. وبدأ الجو يصفو، فأكد العم :«لقد راقت السماء، وانتهى المطر».

ومرة ثانية، غمز لي ليلي بعينه ولكن بغير أن يكرر العبارة الجميلة.

وبينما كنا نتسلق الركام، قال لي ليلي :«نحن لسنا في عجلة من أمرنا، فكلما تركنا الفخاخ وقتا أطول، كان ذلك أفضل».

ورحنا نتمدد، وسواعدنا تحت رؤوسنا، تحت شجرة غبيراء عجوز منتصبة وسط الزعرور.«لن يدهشني، قال، إذا ما حصلنا الليلة على بعض طيور «السايرا»، لأن اليوم، هو أول أيام الخريف».

في مناطق الوسط والشمال الفرنسي، ما إن تأتي الأيام الأولى من سبتمبر، حتى تهب نسمة خفيفة مصطحبة أمامها أوراقاً جميلة ذات صفرة فاقعة، تلف وتنزلق وتدور حول نفسها، برشاقة العصفور... ويأتي طيران هذه الأوراق بعد قليل من اعتزال الغابة، التي تصبح شقراء، ثم قاحلة سوداء، لأن كل أوراقها تطير من عليها وراء السنونو، ما إن ينفخ الخريف في مزماره الذهبي.

لكنه في مقاطعتنا الجنوبية، لا يُصَفِّر أشجار الصنوبر ولا الزيتون إلا عند موتها، وتعيد الأمطار الأولى لسبتمبر غسل خضرة الأفنان، باعثة من جديد ملامح شهر أبريل. وعلى هضاب البراري، تظل شجيرات السعتر، وإكليل الجبل، والعرعر، والسنديان محتفظة بأوراقها الأبدية في هلامية دائمة الزرقة، وينزلق الخريف في عمق الأودية، في صمت وتَخفٍّ. فقط يعلن عن وجوده أحياناً، عندما تمطر ليلاً، فتصفر الكروم الصغيرة، أو الحوخات الأربع التي

يعتقد البعض بأنها مريضة، ولكنه لكي يمعن في الاختفاء يحمرّ القطلبات البرية التي ينظر إلى حالتها هذه على أنها علامة على الربيع، وعلى هذا النحو كانت أيام الأجازة، دائماً تشبه بعضها، لا يتحرك بها الزمن، وقد مات فصل الصيف بغير أن تظهر عليه معالم الشيخوخة.

ونظرت حولي، بغير أن أفهم شيئاً.

«من قال لك إن الخريف قد أتى؟»

– «بعد أربعة أيام، سيأتي عيد القديس ميشيل، وستصل طيور «السابر». لكن ذلك لن يكون موعد مجيئها الكثيف، فالموعد في الأسبوع القادم، الأسبوع الأول من أكتوبر...»

وقبضت الكلمة الأخيرة قلبي، أكتوبر! العودة المدرسية!

ورفضت التفكير فيها، فأبعدت بكل قواي عن رأسي الفكرة المؤلمة، وعشت بهذا الشكل حالة عقلية لم أفهمها إلا فيما بعد، عندما شرح لنا معلمي «إيمي ساكومان» المثالية الذاتية عند فيختة. فقد تصورت مثل الفيلسوف الألماني أن العالم الخارجي كان من خلقي الخاص، وأنه من السهل عليّ، ببعض الجهد الإرادي، أن أمحو، بمحّاية، الأحداث الكريهة. وبسبب هذا النوع من الاعتقاد الساذج، والذي تكذّبه الأفعال دائماً، يصيب الأطفال هذا الغضب العنيف، عندما يحل محل الأحداث التي يعتقدونها نقيضها، بوقاحة.

حاولت إذن أن ألغي شهر أكتوبر، فهو يوجد بالمستقبل، ولا يقاوم بنفس الشكل الذي يقاوم به فعل في الحاضر. وساعدني على ذلك هدير قادم من بعيد، أوقف المحادثة كلية فيما بيننا.

ونهض ليلي مرهفا أذنيه، وهب الهدير ثانية، من جهة الألاووش، على الناحية الأخرى للتاومي.

-«بالضبط، قال ليلي، سترى بنفسك خلال ساعة!... إن العاصفة بعيدة ماتزال، ولكنها ستأتي».

وعند خروجنا من أكمة النسرين، رأيت السماء قد اكفهرت.

-«وماذا سنفعل، قلت، هل سنعود إلى مغارة «سورن؟».

- «ليس مهماً. فأنا أعرف مكاناً، على طرف التاومي تقريباً، نرى منه كل شيء بغير أن نبتل. تعال».وشرع في السير.

وفي هذه اللحظة نفسها، دوّى قصف الرعد، بشكل أقرب، وعصف بكل المنظر بشكل عنيف. فاستدار ناحيتي:«لا تخف، لدينا وقت».لكنه أسرع الخطى.

وتسلقنا مدَقّيْن، بينما تلونت السماء بلون الشفق. وعند وصولنا إلى كتف الربوة، رأيت سحابة هائلة بنفسجية تتقدم، ولمعة حمراء في منتصفها كأنها تمزقها بعنف، وبغير ضجة.

وتسلقنا مدقا ثالثاً كان عمودياً تقريباً. ووصلنا إلى المصطبة ما قبل الأخيرة التي كانت تعلو كتف الربوة بعدة أمتار.وعند الحافة، على بعد خمسين خطوة منا، كان ينفتح في صفحة الأرض أخدود مثلث الشكل لم تكن قاعدته تزيد عن متر في العرض.

ودخلنا فيما يشبه المغارة هذا، الذي كان متسعاً في بدايته، ثم صار يضيق أكثر كلما توغلنا في الصخر والليل.

وجمع ليلي بعض الأحجار المفلطحة، أقام بها ما يشبه الدكة في مواجهة المنظر، ثم وضع كفيه الاثنتين على حافتي فمه كمن ينادي، وصاح على السحب :«يمكنك الآن أن تبدأي الهطول!».

لكنها لم تفعل.

كان وادي «البستاني» ظاهراً في الأسفل، تحت الهضبة ذات الثلاث شرفات، وكانت غابة الصنوبر تمتد حتى الحاجزين الصخريين العلويين المتصدرين قمة الباس ـ تون، والغاطسين بدورهما بين هضبتين جدبتين.

وكان إلى يميننا، وبنفس ارتفاعنا تقريباً، سفح منحدر التاومي، الذي نصبنا فيه فخاخنا.وإلى يسارنا وادي البستاني، المنحدر، الموشى بالصوبر والصندل الأخضر، والصاعد حتى طرف السماء.

هذا المشهد الطبيعي، الذي كنت أراه طيلة الوقت الماضي يرتجف تحت الشمس، في هواء الأيام الحارة المتراقص، كان ثابتا الآن أمامي في مكانه، كما لو أنه نموذج هائل من الكرتون.

ومرت السحب البنفسجية فوق رؤوسنا، وراحت الأضواء الزرقاء تهبط من دقيقة لأخرى كأنها أضواء مصباح بسبيله للانطفاء.

ولم أكن خائفاً، ولكني شعرت بقلق غريب، وبتوجس عميق، غريزي.

كانت عطور التل ـ خاصة رائحة اللافندر ـ قد أصبحت طاغية، وهي تصعد من الأسفل إلينا على نحو شبه مرئي.

ومرت بعض الأرانب مسرعة كما لو كانت تتعقبها الكلاب، ثم مرت دراريج كبيرة فاردة أجنحتها وهي صاعدة من الوادي بغير ضجة، وحطت على بعد ثلاثين خطوة إلى يسارنا، أسفل نتوء الحافة الرمادية.

وشرعت الصنوبرات، في هذا الصمت الاحتفالي، في الحفيف.

كانت تصدر عنها همهمات بعيدة، كضوضاء ضعيفة جداً عالقة بالصدى، لكنها مرعدة، ومستمرة، وسحرية.

ولم نكن نتحرك، أو نتحدث، وصاح صقر من جهة مغارة «سورن»، باتجاه

الحافة، صيحة حادة متقطعة، استطالت بعد ذلك كأنها قد أصبحت نداءً ؛ ثم سقطت أمامي، على الصخر الرمادي، أول القطرات.

كان سقوطها متباعداً، الواحدة عن الأخرى، وهي تثير من حولها بقعاً بنفسجية كبيرة، كأنها قطع من ذوات القرشين، ثم بدأت تتقارب من بعضها وتتتابع، ولمع الصخر كأنه رصيف قد ابتل. ثم بدأ أخيراً الهطول السريع، وتبعه رعد جاف مرتج، شق السحب التي راحت تذوب على براح الأرض في طقطقة هائلة.

وانفجر ليلي في الضحك، ولاحظت أنه كان عارقاً. وأحسست أنني كنت عارقا كذلك، لكننا كنا قد بدأنا نتنفس بحرية.

كان المطر العمودى قد عمل على إخفاء المنظر الطبيعي في تلك اللحظات، فلم يتبق منه سوى قوس دائرة، محاط بستار من اللؤلؤ الأبيض، ومن وقت لآخر، كانت تبرق لمعة خاطفة تبدو كما لو أنها ستثبت. وهي تضيء الأفق الأسود، والظلال السوداء للأشجار التي تظهر صورتها من خلف الستار الزجاجي. وبدأ الجو يبرد.

«إنني أتساءل، قلت، أين أبي الآن؟»

– لابد أنهم قد ذهبوا إلى كهف الباس ـ تون، أو إلى مغارة «زيف» الصغيرة» .وفكر لبضع ثوان، ثم قال فجأة :

– «إذا أنت أقسمت لي ألا تقول هذا لأحد. سأريك شيئاً. ولكن لابد أولاً أن تقسم بالصليب الخشب والصليب الحديد.

وكان هذا قسماً احتفالياً، لا يطلب إلا في المناسبات الهامة. ورأيت ليلي قد اتخذ مظهراً جاداً، وهو ينتظر جوابي. فنهضت واقفاً، ومددت يدي اليمنى، ومع ضجة المطر، نطقت بصوت جهير :بحق الصليب الخشب، وحق الصليب

الحديد، إذا بُحْتُ بالسر، أذهب للجحيم.

وبعد عشر ثوان من الصمت ـ أسبغت حالة الجدية على القسم ـ نهض:

– حسنا، قال، الآن، تعال. سنذهب للناحية الأخرى.

– أية ناحية أخرى؟

– هذا الكهف المتفرع من الأخدود، يعبر إليها، فهو ممر تحت هضبة التاومي.

– هل سبق أن مررت به؟

– كثيراً.

– أنت لم تقل لي هذا أبداً.

– لأنه سر كبير، فلا يعرف به سوى ثلاث أشخاص : باتيستا، وأبي، وأنا. أنت الآن رابعنا.

– وهل تعتقد أنه سر هام إلى هذا الحد؟

– أتهزل! هذا أمر شديد الأهمية بسبب الدرك، فعندما تراهم في ناحية من التاومي، تعبره للناحية الأخرى. فهم لا يعرفون بالممر ـ وقبل أن يتمكنوا من اللحاق بك، تكون أنت قد صرت بعيداً ـ وأنت قد أقسمت، ولن تشي بهذا السر لأحد.

– حتى لأبي؟

– «إنه ليس بحاجة لأن يعرف به، فلديه تصريح بالصيد».

وصار الأخدود أكثر ضيقاً في عمق الكهف، وتفرع ناحية الشمال. فانزلق ليلي أمامي وأكتافه للأمام:«لا تخف، سوف يتسع عرضه فيما بعد».

وتبعته.

كان الممر يصعد، ثم يعود للهبوط، ويتجه يميناً، ثم يساراً. ولم نعد نسمع المطر، لكن قصف الرعد كان يهز الصخر من حولنا.

وفي آخر قصفة رعد، ظهر برق. وأفضى النفق إلى منحدر آخر، وبدا أن وادي الإسكاوبر قد صار تحت أقدامنا، لكن سحابة من الضباب كانت تغطيه كلية، وكانت السحب تتقدم نحونا في طيات رمادية، وهي تتدافع كالمد المتقدم، وبدا كأننا سنغرق فيها كلية، فلم نكن نرى أمامنا لأبعد من عشر خطوات.

كان الكهف الذي دلفنا فيه أعرض من سابقه، وكانت الرواسب الكلسية تتدلى من سقفه بارتفاع مترين عن الأرض.وراحت الأمطار تهطل بشكل عاصف، كثيفة، وسريعة، وثقيلة. وفجأة بدأ الرعد يتعاقب بلا توقف. فكانت كل قصفة منه تدعم نهاية سابقتها. وكان أولها يصل إلى مسامعنا بالأصداء التي تتردد بعنف.

كانت، على عتبة الكهف، شجرة بتل تهتز بعنف تحت وقع ضربات المطر، وهي تسقط أوراقها اللامعة تباعاً. وكنا نستمع من يميننا ويسارنا إلى جريان الماء في المجاري، وهو يدفع أمامه بالحصى والحجارة، ويمور مع أصوات تساقطها غير المرئي في الأسفل.

كنا في مأمن أكيد، وكنا نهزأ بقوة الرعد، إلى أن اصطدمت صاعقة دامية صارخة، بالحافة القريبة منا فأسقطت عارضة كبيرة من الصخرة.

عندها، سمعنا طقطقة جذوع الشجر التي حطمتها الكتل الطافرة في طريقها، وكأنها انفجارات منجم في العمق البعيد للوادي.

هذه المرة، ارتجفت من الخوف، وهرعت للوراء إلى داخل الممر.

«جميل!» قال ليلي. ولكني رأيت بوضوح أنه لم يكن مطمئناً، وجاء وجلس على مقربة مني، ثم عاد للحديث : «جميل، ولكنه أحمق.»

– وهل سيستمر طويلا؟

– ربما ساعة، ولكن ليس أكثر».

وبدأت خيوط الماء في السيلان من شقوق العقد القوطي المقوس، الذي تهاوت قمته في الظلام، ثم أرغمنا تساقط الماء على تغيير مكاننا.

«التعيس في الأمر، قال ليلي، هو أننا سنخسر دستة فخاخ... وسيكون لزاما علينا تجفيف الأخرى أمام النار وتشحيمها، لأنها...» .

وتوقف كلية عن الكلام، ونظر بتحديق إلى ما ورائي، وغمغم بطرف شفتيه:«انحن بهدوء، والتقط حجرين كبيرين!»

وارتعبت مرة واحدة، وكمشت رأسي بين كتفي، وشلت حركتي، ولكني رأيته ينحني ببطء، وعيناه مثبتتان باستمرار على شيء يتواجد خلفي، أعلى قليلاً مني.. وانحنيت بدوري، ببطء... وكان قد أمسك بحجرين كبيرين في حجم قبضتي، ففعلت مثله.«استدر بهدوء» . همس لي.

والتفت برأسي، ونصفي الأعلى، فرأيت عينين فسفوريتين تلمعان عالياً في الظلمة.قلت وأنا ألهث :«أهذا مصاص دماء؟

– «لا، إنه، الغراندوق»

وحدقت بكل تركيز، وتمكنت من تحديد حجم الطائر.

كان جاثماً على نتوء صخري، مرتفع بطول قدمين. وكانت قطرات الماء قد جعلته يهجر وكره، الذي كان لا شك في مكان ما بسقف الكهف.

وهاجمني الطائر البشع فجأة.

«لنرحل، قلت، لنرحل! الأفضل أن نبتل على أن يفقأ أعيننا».

وقفزت في الظلمة، وتبعني.

كنت في هلعي هذا قد أضعت كاسكيتتي، وراحت قطرات المطر تطقطق فوق رأسي العارية، وانزلقت خصلات شعري على عيني.

«سر تحت الحافة، صاح ليلي، فسوف نبتل تحتها بشكل أقل، كذلك سيساعدنا هذا على ألا نتوه من بعضنا».

وكنت، لا أكاد أرى أمامي لأبعد من أربع خطوات.

وفكرت في أن معرفتنا بالأماكن كانت كافية لتقودنا من النظر إلى شجرة واحدة، أو لدغل واحد لمعرفة طريقنا، لكن الظلمة، التي لم تكن متجانسة، لم تكن مجرد ستار يموه الأشكال، بل يشوهها. فقد كانت تجعلنا نرى شبح صنوبرة ملتوية، لكنها تمحو كلية خيال شجرة صندل عملاقة بجانبها، ثم تخفي الصنوبرة الصغيرة بدورها، وتظهر نصف شجرة الصندل، على نحو لا يوضحها. فكنا نسير في مشهد يتغير بلا توقف، ولولا وجود الحافة التي كنا نتلمسها فوق رؤوسنا بأيدينا في سيرنا، لم يكن أمامنا إلا الجلوس تحت هذا الطوفان، والانتظار.

لحسن الحظ، هدأت السماء شيئاً فشيئاً، ورحل الرعد باتجاه الجارلبان، وقل عنف المطر، فصار يسقط بشكل منتظم، معتدل، ومستقر...

مع هذا، فالحافة التي كانت تظلنا انتهت فجأة عند طرف نتوء التاومي. فودعناها بكثير من الخشية. كالطفل الذي ترك درابزين السلم.

وتقدم ليلي أمامي...

وعثر، وهو مسدد بصره للأرض، على الدرب، الذي كانت مجاري الرعد

قد موهته أيضاً، فضلاً عن أن عرعرة عجوزاً كانت تمد في الظلمة فرعين ميتين ملتويين قد ضللت طريقنا، ورغم ذلك عثرنا على الطريق السليم، ورحنا نخب في السير.

كانت أخفافنا المنتفخة من تشبعها بالماء، تبقبق في كل خطوة، وكان شعري المبتل يشعرني بالصقيع على جبهتي. وقد التصقت سترتي وقميصي بجسدي.

ومع الصمت العائد، سمعنا نوعاً من الهدير الضعيف، والمستمر في نفس الوقت. وتوقف ليلي، وراح يصغي: «هذه، قال، هي مجاري الإسكاوبر تفيض. ولكن لا نستطيع تحديد أية جهة هي التي يأتي منها الصوت».

وأرهفت السمع، كان الصوت يأتي من كل الجهات، بسبب الأصداء التي تواريها أصوات المطر.وأعلن ليلي، الممعن في التفكير:

—«وربما كانت أيضاً مجاري «الجاريت» أو مجاري وادي «خطوة الذئب».... ونحن إذا لم نسرع، بنصاب بالبرد!».

وانطلق يعدو، وتبعته، وأنا أخشى أن أفقد في الظلمة أثر هذا الظل الصغير المتراقص الذي يجرر وراءه أستار الظلمة.لكنه توقف مرة واحدة، بعد عشرين دقيقة من العدو، واستدار نحوي.

—«إن الطريق يهبط أكثر فأكثر، فلابد أننا لسنا بعيدين عن حظيرة باتيستا.

– لكننا لم نر أشجار البتل الثلاث.

– أنت تعرف، أننا لا نرى اليوم شيئاً على الإطلاق.

– هناك واحدة تحف بالممر، كنا نراها حتى في الضباب!

– أنا لم أنتبه، قال.

- لكنني أنا كنت منتبها!

- «إذن، فربما مازالوا بعد في الأسفل».

وعاد للعدو، وكانت ألف من المجاري تسيل في ضجة خافتة. وعبّر طائر كبير أسود، فارداً جناحيه فوق رأسينا، على علو عشرة أمتار. واستنتجت أننا كنا قد ودعنا الممر منذ وقت طويل. وفهم هو ذلك أيضاً. فتوقف ثانية.

«إني أتساءل، قال، إني أتساءل...».

ولم يكن يدري ماذا يفعل، فطفق يسب الضباب، والمطر، والآلهة، بالمسبات الريفية العنيفة.

«انتظر، قلت له فجأة، لقد جاءتني فكرة. لا تحدث ضجة».

واستدرت إلى يميني، واضعاً يدي الاثنتين على فمي، وأطلقت صيحة نداء، ثم أصغيت.وردد صياحي صدى ضعيف، ثم صدى آخر أكثر ضعفاً.

هذا، قلت، أعتقد أنه جرف «الإسكاوبر»، تقريباً من ناحية أسفل «الرأس الحمراء».

وصحت ثانية جهة الأمام. فلم يتردد صدى. واستدرت لليسار، وصحنا معا.وعلا صدى له رنين، تبعه تردّدان آخران، وكان هذا صوت «الباس ـ تون».

«أعرف أين نحن، قلت، لقد توغلنا قليلاً ناحية اليسار، فإذا واصلنا هكذا، سنصل إلى أطراف جروف «الجاريت». اتبعني».

ومضيت، متجها في عدوي ناحية اليمين... وكان المساء قد كثف من ظلمته، ورحت أرجو الأصداء الأليفة، وأدعو رب الإسكاوبر، أن يترفق بنا.

وتوقفت أقدامي، أخيراً، على سلسلة من الأحجار المستديرة، كانت تتدحرج تحت نعلي.

عندئذ، خرجت عن الممر، باتجاه اليمين، فميزت شيئاً ممتداً أسود.وتقدمت ناحيته، يداي أمامي، فأمسكت قبضتي فجأة بالأوراق المكتنزة لشجرة تين... كانت هي شجرة حظيرة باتيستا، وجعلتنا رائحة المرعى التي بعثها الرعد، نعرف أننا نجونا. وفهمت الأمطار ما حدث، فتوقفت عن الهطول.

وانتهينا إلى أن صرنا سعداء، وفخورين بهذه المغامرة، التي ستعطينا فرصة حكي حكايات جميلة، ولكن أثناء ما كنا نهبط بسرعة على منحدر ريدونو، سمعت على البعد خلفنا نداء طائر.

—«إنه «الزقزاق»، قال ليلي، وهو لا يتوقف هنا، فهذه أسراب الزقزاق الراحلة....»

واندفعت على هيئة سرب مثلث، يرى بالكاد، في الظلمة التي جعلتها تحلق على ارتفاع منخفض، جوقة من الطيور، ومرت فوق رؤوسنا، وهي تواصل هذه الصيحة النائحة... وترحل باتجاه آفاق أخرى.

ووصلنا، كالعادة، إلى ما وراء البيت.

كان نور ضعيف يرتج بالدور الأول، ينعكس بفعله رذاذ الماء في الظلمة الخافتة. ولمحت أمي ماثلة في الضوء الشفقي الضعيف لمصباح البترول، الذي صدعت القطرات الأخيرة للمطر زجاجة المتوهج.

كانت نار كبيرة تشتعل بالمدفأة، وأبي وعمي، في مآزرهما وأخفافهما، يثرثران مع فرانسوا، وملابسهما معلقة على بعض الكراسي، لتجف أمام النار.

— أرأيت أنهما لن يتوها! صاح أبي بفرح.

— «أوه! هذا لا يُخْشَى عليه». قال فرانسوا.

وجست أمي سترتي، ثم سترة ليلي، وصاحت صيحة قلق.

—«إنهما مبتلان! مبتلان كما لو سقطا في ماء البحر!

– هذا يخشنهما، قال فرانسوا بهدوء كامل... فالأطفال لا يخشى عليهم من الماء، خاصة إذا كان هذا الماء ماء السماء!».

ونزلت الخالة روز السلم عدوا، كما لو أنها تهرع إلى حريق. حاملة خرقاً ومناشف. وفي لحظة صرنا عاريين أمام النار، مع الغبطة الشديدة لبول، والارتباك الشديد لليلي، الذي اختبأ قدر استطاعته، بحياء أبناء الفلاحين، وراء حلل الصيد. لكن الخالة حاصرته بلا أدنى تردد، وراحت تدعكه بمنشفة، وهي تقلبه كما لو أنها تقلب لعبة في يديها. وفعلت أمي معي نفس الشيء، وأعلن فرانسوا، الذي كان يراقب العملية:«لقد احمرا كالورود البرية».ثم أردف :

«هذا يحسن صحتهما!».

وألبستَ الخالة حُلتي القديمة ذات الياقة البحرية لليلي، مما أضفى عليه مظهرا جميلاً. بينما تسربلت أنا – كالرهبان – في صدرية أبي الصوفية، التي غطتني إلى ركبتي. ووضعت جوارب أمي الصوفية التي وصلت حتى أفخاذي.

وجلسنا أمام النار مباشرة. وقصصنا ملحمتنا. وعندما وصلت إلى لحظة هجوم طائر الغراندوق علينا، التي لم أستطع بالطبع أن أصفها بأنني كنت مشلولاً فيها تحت الصخرة، قلت: إنه انقض بالطبع علينا، وعيناه تقدحان الشرر، ومخالبه مشرعة، وهو يحوم فوق رأسينا. وبينما كنت أحارب أنا الأجنحة، صرخ ليلي عليه صرخة وحش حادة. وكانت الخالة روز تستمع وهي فاغرة فاها، وأمي تهز رأسها، وبول يحمي عينيه بكلتا يديه. وبلغت القصة منتهى الإثارة حتى أنني نفسي خفت، وظل هذا الخوف يطاردني في الحلم – لسنوات أعقبت ذلك – من ذلك الطائر العدواني الذي هاجمني ليفقأ عيني.

وقص العم جول بعد ذلك في هدوء بطولي الملحمة الخطرة للصيادين.

كانت الرعود قد باغتتهما في عمق المضائق، وتمكنا أول الأمر من الإفلات بمعجزة من تساقط الصخور الكبيرة التي راحت تنهال بلا توقف

أمامهما وخلفهما، ثم من الصاعقة التي شقت شجرة الجوز الكبيرة نصفين في المغارة الصغيرة، وأخيراً، كيف ابتلا وأنهكا، وتعقبتهما السيول، التي كانت تتزايد من لحظة لأخرى، ولم يحمهما إلا العدو بلا هدف، الذي اعترف العم جول بأنه أصبح في وضع لم يعد فيه قادراً على مواصلته.

ولم تحدث قصته أثراً كبيراً، فنحن لا نضطرب ونحن نسمع قصص الصيادين ذوي الشوارب.

قال فرانسوا وهو ينهض، ببساطة :«وماذا تريد! إنه الموسم!... فقد انتهى الآن الجو الحسن... نهايته، لقد اتفقنا بخصوص يوم الأحد، هيا، وداعا يا أصدقاء!».

وخرج، مصطحباً ليلي، الذي احتفظ بحُلّتي العتيقة لكي تفرح به أمه وهو يرتديها.

‹› ‹› ‹›

وفي العشاء، أكلت بشهية عظيمة، إلى أن قال العم جول جملة بسيطة، لم أعطها اهتماماً في مبدأ الأمر.

«أعتقد، قال، إن عُلَبَنَا ولفَائفنا لن تكون أمتعة ثقيلة على عربة فرانسوا، وسيكون ممكنا في هذه الحالة إجلاس روز، والطفل، وأوجستين، والطفلة، وربما بول أيضا على العربة. فما رأيك يا صغيري بول؟».

لكن الصغير بول لم يكن قادراً على الرد، فقد رأيت شفته السفلى تتدلى، وتنتفخ، ثم تتقوس باتجاه ذقنه. وكنت أعرف جيداً هذه العلامة، التي كنت

أشبهها بأنها تتخذ شكل طرف قصرية الأخت الصغيرة. وكالعادة، كانت هذه العلامة تعقبها زفرة مختنقة، ثم تطفر من عينيه الزرقاوين دمعتان.

«ماذا حدث؟».

وأخذته أمي في التو في حجرها، وراحت تهدهده، بينما غرق هو في الدموع والشهيق: «ولكن يا عبيط، قالت أمي، أنت تعرف أن هذا لن يستمر طول الوقت! وأننا سنعود إلى هنا بعد ذلك... وعيد الميلاد الذي سنعود فيه ليس بعيداً!».

وشعرت بالانقباض: «ماذا قالت؟»

– قالت، أجاب العم، إن الإجازة قد انتهت!».

وصب لنفسه بهدوء كأساً من النبيذ.

وسألت بصوت مختنق :

– متى تنتهي؟

– سنرحل صباح بعد باكر، قال أبي. فاليوم هو الجمعة.

– اليوم الجمعة، قال العم، وسنرحل صباح الأحد.

– «أنت تعرف أن يوم الاثنين، هو بدء العودة المدرسية». قالت الخالة.

وظللت للحظة لا أفهم شيئاً، وأنا أتطلع إليهم باستغراب.

«شوف، قالت أمي، هذه ليست مفاجأة، فنحن نتحدث في هذا منذ ثمانية أيام!».

وكانوا بالفعل قد تحدثوا في هذا الشأن، ولكني لم أكن أرغب بالإنصات، فقد كنت أعرف أن هذه الكارثة آتية لا محالة، كما يعرف الناس أنهم سيموتون يوماً، لكنهم يقولون: «إنها ليست بعد اللحظة التي نجد أنفسنا فيها

في قلب المشكلة. وسنفكر في ذلك عندما يحين الوقت ويجيء الحدث».

وقد جاء الوقت، وشلتني الصدمة عن الحديث، وعن التنفس تقريباً، ولاحظ أبي هذا فحدثني بلطف :

—«أنظر يا ولدي، أنظر! لقد حصلت على إجازة شهرين طويلين...»

—«وهما اللذان انتهيا الآن! قاطع العم. ولو كنت رئيساً للجمهورية لما حصلت على مثل ذلك!».

ولم يؤثر فيَّ البتة هذا المنطق الأريب، بما أنني كنت قد قررت عدم التطلع إلى هذه الوظائف العالية إلا بعد قضائي الخدمة العسكرية.

—«وأمامك الآن، عاد أبي للحديث، سنة هامة في حياتك، فلا تنس أنك في يوليو المقبل، ستتقدم لامتحان المنح الدراسية، لكي تدخل المدرسة الثانوية في أكتوبر القادم!»

— وأنت تعرف أن هذا في غاية الأهمية، قالت أمي، فأنت تقول دوماً: إنك تريد أن تكون مليونيراً، ولو لم تدخل المدرسة الثانوية، لن تكون مليونيراً أبدا!».

كانت تؤمن إيماناً عميقاً بأن الثراء نوع من جائزة التفوق التي تكافئ دون أدنى شك العمل، والتعلم.

—«ثم إنك، في المدرسة الثانوية، قال العم، ستتعلم اللاتينية، وأنا أؤكد لك أن هذا سيتفق وميولك! فقد كنت أنا أذاكر اللاتينية حتى في الإجازة، للاستمتاع!».

ولم تحجب عني هذه الاقتراحات الغريبة، المتعلقة بالمستقبل، حقيقة المأساة، وهي أن الإجازة قد انتهت، وشعرت بذقني تختلج.

—«أرجو ألا تكون بصدد أن تبكي!» قال أبي.

– أرجو ذلك أنا أيضاً. وبذلت جهداً كبيراً، كالجهد الذي يبذله الكومانش على عمود التعذيب، وتحول يأسي إلى انتفاضة، فرددت محاولاً السيطرة :

–«بعد كل شيء، قلت، هذه جميعاً أمور تعنيكم أنتم، لكن ما يقلقني أنا، هو أن أمي لن تستطيع السير على قدميها حتى «الباراس».

– بما أن هذا هو شاغلك الكبير، قال أبي، سوف أطمئنك في الحال. ففي صباح الأحد، كما قال العم جول، سيركب النساء والأطفال في عربة فرانسوا، ليوصلهم حتى طرف قرية الكرمة، عند موقف الأمنيبوس.

– أي أمينبوس؟

– «الأمينبوس الذي يأتي كل أحد، والذي سيقلنا حتى الترام».

كانت هذه الإشارة إلى أمينبوس– الأحد الذي لم نره أبدا –تؤكد وجود خُطَّة وضعت بالتفصيل، وأنهم فكروا في كل شيء.

– «والتين، قلت فجأة متسائلا.»

– أي تين؟

– تين الشجرة التي على المصطبة. فهو لم يتبق منه إلا نصفه، وسوف ينضج هذا النصف في حدود ثمانية أيام. فمن الذي سيأكله؟

– ربما أكلناه نحن، إذا عدنا إلى هنا بضع أيام في عيد كل القديسين، بعد ستة أسابيع.

– وهل ستبقي منه العصافير، والبلابل، وهل سيبقي منه الحطابون واحدة! وهل سندع كل زجاجات النبيذ في الكهف لكي تفسد؟

– على العكس، قال العم جول، فالنبيذ يتحسن بالقدم».

وأحبط هذا التأكيد المنتصر هجومي، فغيرت اتجاهه في التو.

-«هذا صحيح، قلت، ولكن هل فكرتما في الحديقة؟ لقد زرع أبي الطماطم، ولم نأكل منها واحدة بعد! وكذلك الكرات، إنه لم يزد بعد عن طول إصبعي الصغير! فما العمل؟

- ربما أكون قد أخطأت في حساباتي الزراعية، قال أبي، لكن المسؤول الأعظم هو الجفاف، فلم تمطر السماء إلا اليوم.

- حسنا، قلت، الآن سوف تمطر، وهذا كله سينضج، إنه سوء حظ بالفعل!

- «اطمئن، قال أبي، فسوف تسعد بأكل هذه الخضروات بالبيت في المدينة، لأن فرانسوا وعدني أن يهتم بها، وعند مجيئه للسوق سوف يحمل لنا منها أقفاصا مليئة!».

عندئذ، بحثت عن ألف ذريعة عبثية، فحاولت أن أثبت أن الرحيل المفاجئ على هذا النحو ليس أمراً واقعياً، كما لو كان بالإمكان تأخير العودة المدرسية. لكني شعرت بضعف حججي، وغمرني اليأس، حتى جاءتني فكرة عبقرية...

-«أنا أعرف جيدا، قلت، أن عليَّ الذهاب للمدرسة، بل إن هذا يسعدني.

- هنيئا لك! قال العم جول وهو ينهض.

- لقد صرت عاقلاً! قال أبي.

- فقط، أنا أفكر في أن هواء المدينة، بالنسبة لأمي، لا يفيدها. وأنت الذي قلت هذا. نعم نعم، أنت الذي قلته. على حين أنها هنا، انظر إليها كم تحسنت صحتها! وكذلك أختنا الصغيرة، تحسنت صحتها هي الأخرى. فهي الآن تتسلق الأشجار، وتقذف بالأحجار! لذا، فليس أمامنا إلا أن نفعل مثل ما فعل

العم جول!

– وماذا فعل العم جول؟

– «حسنا، هو يذهب للمدينة كل يوم تقريباً بدراجته، ويعود في المساء! وما عليك إلا أن تستعير دراجته، وتضعني أمامك على المقود أو وراء ظهرك. وتظل أمي هنا مع الأخت الصغيرة، ومع بول! فبول، لا يفعل شيئا بالمدرسة، ثم إنك رأيت كيف أنه بكى، فإذا أخذناه للمدينة، سيظل يبكي طول الوقت! فأنا أعرفه....».

ونهض أبي، ثم قال :«هذه على كل حال ليست فكرة سيئة، لكننا الآن قد تأخر بنا الوقت، لنتحدث في ذلك غداً.»

– تماماً، قال العم، الآن، يجب الذهاب للنوم، فسوف نبدأ مشوارنا غدا في ساعة مبكرة، لأن غدا، هو آخر أيام الصيد بالنسبة لنا، وقد حصلنا على التصريح بالذهاب فيه لغابة بيشواري، التي هي أجمل أماكن الصيد في هذه الأنحاء».

وحمل أبي بول النائم بين ذراعيه، وصعدنا السلم وراءه. فقلت لأمي بصوت خفيض :

–«ألا تعتقدين أنها فكرة جيدة؟

– إنها فكرة رائعة، قالت لي... لكن ذلك سيكون مرهقاً جداً لأبيك!

– حسنا، ربما أمكننا ألا نعود كل يوم، فقط الأربعاء والسبت مثلاً...

– أنا سأخاف بالتأكيد من البقاء وحدي في الأيام الأخرى!

– لا ... لن تخافي! فسوف أطلب من ليلي أن يجيء لينام هنا...

– هذا، يحل المشكلة كلها! قال العم جول. فإذا قبل ليلي، حلت

مشكلتنا.

– إنه الآن قد تعلم إطلاق النار، قلت، وبدقة، فقد تدرب على بندقية أخيه.

– «حسنا، قالت أمي، اذهب ونم أولاً، فأنت في حاجة شديدة للنوم... وسأتحدث مع أبيك، ونرتب كل هذا غدا».

<> <> <>

وأيقظتني لفحة هواء باردة، كان بول قد فتح النافذة، وقد بدأ ضوء النهار في البزوغ، واعتقدت أنه الضوء الشاحب للفجر، لكنني سمعت خرير المزراب، ووقع الماء يتدفق في الصهريج...

كانت الساعة قد بلغت الثامنة على الأقل، ولم يوقظني أبي كعادته، فقد أغرق المطر آخر أيام الصيد.

قال لي بول :«عندما يتوقف هذا المطر، سأذهب لجمع القواقع».

وقفزت من السرير:«هل تعرف أننا راحلون غدا؟»

وأمّلت أن أوقظ فيه اليأس الاستعراضي الذي يمكنني استخدامه.ولكنه لم يجب، فقد كان مشغولاً جداً بعقد رباط حذائه.

–«لن نذهب بعد ذلك للصيد، ولن يكون لدينا نمل، ولا حشرات الراهبة، ولا صراصير.»

– لقد ماتت كلها! قال بول. فأنا أبحث عنها طول الوقت ولا أجدها.

– في المدينة لا توجد أشجار، ولا حدائق، ولابد من الذهاب للمدرسة...

– أوه! نعم! قال بفرح. في المدرسة سأجد «فوزيبه».. إنه جميل فوزيبه.. وأنا أحبه. سأحكي له كل شيء. وسوف أعطيه الممحاة....

– ما هذا، قلت له بلهجة قاسية، أيسعدك أن تكون الإجازة قد انتهت؟

– نعم! نعم! ثم إنني لديَّ علبة تماثيل جنود في البيت هناك!

– لماذا بكيت إذن أمس؟

وفتح عينيه الزرقاوين الواسعتين، ثم قال :«لا أعرف».

وخارت عزيمتي بسبب هذا التخلي، ولكني لم أفقد الشجاعة، ونزلت لغرفة الطعام. فوجدت جمعاً من الناس والأشياء.

كان أبي قد رتب الأحذية والأدوات المنزلية والكتب في صندوقين من الخشب الأبيض، وكانت أمي تطبق الغسيل، والخالة تحشو الحقائب به. والعم يربط الحزام، والأخت الصغيرة جالسة ترضع أصبعها على كرسي عال. و«الخادمة» راكعة على أربع، تلم الخوخ في السلّة التي كان قد تبعثر منها بعد انقلابها.«آه ! صحوت! قال أبي. لقد تأخرنا عن الصيد الأخير. وهذا خطأ منا.»

– هو إحباط صغير، قال العم. أتمنى لك ألا تواجه في الحياة إحباطات أخرى أشد!» وصبت أمي لي القهوة بالحليب، ووضعت لي الشطائر الجميلة، على الطاولة المزدحمة بالأشياء، فجلست:

– «بابا، قلت له، هل فكرت في اقتراحي؟

– أي اقتراح؟

– «أن تبقى أمي هنا مع بول، وأن نذهب نحن الاثنين...»

وقاطعني العم جول : «يا صغيري العزيز، هذا أمر لن يقدر عليه.»

– ولكن كيف قدرت عليه أنت؟ ألا ترغب في إعارتنا الدراجة؟

- أنا أعيرها لكما عن طيب خاطر لو أن مشروعك كان معقولاً. لكنك لم تفكر في أنني كنت أغادر المكتب في الخامسة لكي أصل إلى هنا في السابعة والنصف! وكان هذا في الصيف، ويوم الصيف طويل! أما أبوك فهو يغادر المدرسة في السادسة، وفي الساعة السادسة، شتاءاً، يكون الوقت ليلاً! ولن يمكنكما القيام بهذه الرحلة يومياً، في عز الليل!

- ولكن، ألا يمكن الاستعانة بفانوس؟ سأحمل أنا الفانوس...

- «عجبا! قال أبي. أنت ترى حال الطقس! وسوف يزداد المطر أكثر في غالب الأيام ـ ولن يستحق الأمر تكبد كل هذه الكيلومترات لكي نأتي لنحبس أنفسنا أمام المدفأة».

ثم تحولت لهجته فجأة إلى العنف: «ثم إننا، لسنا مضطرين لأن نظل نشرح لك. فقد انتهت الإجازة، ولابد من العودة للمدرسة، وسنرحل غداً».

وراح يغلق الصندوق، كأنه يغلق النعش على الإجازة، وكأن شيئاً لن يثنيه عن عزمه. ومتظاهراً بعدم الاكتراث. رحت إلى النافذة وألصقت وجهي بزجاجها. وراحت قطرات المطر تسيل منه ببطء على وجهي، وسالت دموعي بلا صوت وحلَّ صمت طويل، ثم قالت أمي:

- «قهوتك بالحليب، ستبرد».

فأجبتها، بغير أن ألتفت: «لست جائعاً».

فألحت: «أنت لم تأكل شيئاً مساء أمس. تعال، اجلس هنا».

ولم أجبها، فلما جاءت صوبي، قال أبي، بصوت كصوت رجل الدرك:

-«دعيه. إذا لم يكن جائعاً. والطعام قد يمرضه. فلا تتحملي هذه المسؤولية، وعلى العموم، لا يأكل الثعبان سوى مرة واحدة بالشهر».

ودق أربعة مسامير في صمت، وشعرت أن الحرب قد أعلنت.وظللت في مكاني، أمام النافذة، لا أتطلع إليه.وسمعت عبارات منها :

-«لقد قضينا إجازة جميلة، ومع ذلك، فالبعض ليس سعيداً بالعودة لبيته!» وصدرت عبارة أخرى، عن أبي نفسه :

-«ربما كان ذلك عيبا فيّ، لكني مصرّ على ألا يعطلني أحد عن الالتحاق بتلاميذي، وسبورة المدرسة!».

ألم تخطر بباله طيور الحجل الملكية، هذا المهووس؟

أما الخالة روز، فقد أعلنت :

-«ما ينقصني أنا هنا، هو الغاز، بصراحة، أنا أتحرق للرحيل، بسبب الغاز!»

وفكرت، كيف يكون لامرأة ظريفة ـ في الظاهر ـ هكذا، وعاقلة، أن تتفوه بشطط كهذا، وأن تفضل الغاز الذي يفح النتن على النسيم الجبلي للتلال؟...مع ذلك، فقد فاقها العم جول، في هذا العار، عندما قال :

«أما أنا، فما أفتقده هو المرحاض المريح، الخالي من النمل، والعناكب، والعقارب، والذي به سيفون».

ذلك ما كان يفكر فيه إذن، مدمن النبيذ هذا، ذو المؤخرة المكتنزة، فبين السعتر، وإكليل الجبل، واللافندر، ونشيد الجداجد، وصراصير الليل، تحت السماء اللامعة الزرقة، حيث ينعم الريفيون، لم يكن هو يفكر إلا بهذا، وقد اعترف بذلك!

كنت في قمة السخط، ولكني تحققت بنوع من الاعتداد من أن أمي لم تجدف بحق تلالي العزيزة، بل بدا عليها على العكس من ذلك نوع من الحزن الرهيف جعلني أذهب نحوها وأقبل يدها خلسة.

وجلست في ركن معتم، لأفكر.

هل سيكون من السهل عليَّ أن أكسب ثمانية أيام أخرى، أو أسبوعين ربما بادعاء المرض الشديد؟ ففي حالة الحمى التيفودية، يرسلك أهلك للريف، وهذا ما حدث لصديقي «فيجوير»، الذي قضى بسبب ذلك ثلاثة أشهر في سفوح الألب، لدى خالته. فما الذي يمكن عمله للإصابة بالحمى التيفودية، أو لإيهام الآخرين على الأقل بها؟

إن الصداع الخفي، واضطراب القلب، والمظهر المنتحب، والجفون المثقلة، أعراض لها دائماً تأثير فعال، لكن هذه الأشياء خطرة. وقد عانيت مراراً، مع الترمومتر، من تكذيبه القاطع. وكنت أعرف لحسن الحظ، أنهم قد نسوه بمرسيليا في درج طاولة غرفة النوم... لكنني أدركت في التو أنهم سيحملونني إليه، عند أي ادعاء للمرض، وفي نفس اليوم بالقطع.

ماذا إذن لو كسرت قدمي؟، من أجل المصلحة! فقد قصوا عليَّ قصة الحطاب الذي قطع أصبعيه ببلطة كي لا يذهب للجيش. وقد نجحت خطته بالفعل. بالنسبة لي فأنا لا أريد أن أقطع عضوا من أعضائي، إن ذلك مؤلم جداً، ولأن العضو المقطوع لا ينمو ثانية. على حين أن انكسار العظم أمر لن يترك عاهة واضحة. ثم إنه يلتحم بعد ذلك جيداً. فقد كسرت قدم كاسنيللي، زميلي بالمدرسة، على أثر رفسة حصان، ولم يترك له ذلك أثراً فيما بعد، وقد صار يجري بسرعة أكثر من ذي قبل!، لكن هذا الحل العبقري لن يكون له تأثير، فإذا عجزت عن السير، سيحملونني في عربة فرانسوا، وسوف أظل ممدداً على شيزلونج لمدة شهرين (هذا ما قاله لي كاسنيللي)، بقدم «مجبَّسَة» حتى الفخذ، «مثقلة ليلاً ونهاراً بوزن مائة كيلوجرام»!

لا، لا داعي لكسر القدم.

ولكن، ما العمل؟ هل يجب عليَّ أن أستسلم وأودع للأبد ـ ليلي العزيز؟

ثم إنه قد جاء، فلقد لمحته على المنحدر مقبلاً، محتمياً من المطر بكيس مطوي كأنه برنُس! واستجمعت من توي شجاعتي، وفتحت له الباب على مصراعيه قبل وصوله.

‹› ‹› ‹›

ونفض طويلا نَعْليه على بلاطة العتبة، لكي ينظفهما مما علق بهما من طين، ثم حيا الحضور بأدب، فردوا عليه بجذل وهم يواصلون تجهيزاتهم البشعة.

وجاء ليلي نحوي، وقال : «لابد أن نذهب ونستعيد فخاخنا... لأننا إذا انتظرنا للغد، ربما أخذها جماعة الألاووش!

— «هل تريد الخروج تحت هذا المطر؟ قالت أمي بخشية. هل تريد أن تصاب بنزلة صدرية ؟» .

وكان هذا هو المرض المطلوب بين جميع الأمراض. وكنت أرغب في مغادرة هذه القاعة التي لم أستطع فيها الحديث بحرية. فألححت:

—«يا أمي، سأضع ملفحتي مع البُرنس، وسيضع ليلي ملفحة بول.

—«أتعرفين يا سيدتي، قال ليلي أن المطر هدأ قليلاً، ولا توجد ريح...»

وتدخل أبي :«إنه اليوم الأخير، قال. ليلبسوا ملابس ثقيلة، مع وضع جرائد على صدورهم. وأحذية بدلاً من الأخفاف. وهم على العموم ليسوا مخلوقات من السكر لتذوب، والطقس بدأ يتحسن.

— ألم يكن الجو بنفس الشكل في بداية نهار أمس، قالت أمي القلقة.

– «أمس، عدنا ولم يصبنا شيء، ومع ذلك كان الجو ضبابياً. أما اليوم فهو ليس كذلك!».

وألبستنا. ووضعت بين صدريتي وفانلتي وقميصي، عدة أعداد من جريدة «الريفي الصغير»، مطبقة في أربع ثنيات. ووضعت منها كذلك على ظهري، وكان عليَّ بعد ذلك أن ألبس صدريتين صوفيتين واحدة فوق أخرى، ثم أضع فوقهما قميصاً مزرراً بإحكام، ثم ملفحة الصوف. وأخيراً، وضعت فوق رأسي بيريها شددته حتى أذني، ثم زررت من الأسفل، غطاء رأس المعطف المدبب الشبيه بأغطية رأس الأقزام السبعة، وشرطيي الحراسة.

أثناء ذلك، حزمت الخالة روز ليلي بنفس الطريقة، وكانت ملفحة بول قصيرة عليه، ولكنها كانت تغطي على الأقل رأسه وأكتافه.

عند خروجنا من المنزل، توقف المطر، وأطل شعاع من الشمس فجأة على أوراق الزيتون اللامعة.

–«لنسرع الخطى، قلت، فهم سيذهبون للصيد، وسيكون علينا أن نقوم لهم بدور الكلاب، وهذا أمر لا رغبة لي فيه اليوم. فمادامو سيرحلون غداً، فليصطادوا وحدهم اليوم».

وصرنا في مأمن بعد ذلك أسفل غابات الصنوبر. وبعد دقيقتين، سمعنا صيحة نداء طويلة، وكان ذلك صوت العم جول، الذي لم يجب عليه سوى الصدى.

وبالرغم من رداءة الطقس، كانت فخاخنا قد نجحت نجاحاً كبيراً، وعندما وصلنا إلى (نبع ـ بريجيت) كانت أكياسنا محشوة بطيور أبيض العجيزة والقبرات ذات التيجان...

ولم يكن لهذا النجاح، الذي يثبت عبثية ووحشية الرحيل في الغد، إلا أن يضاعف من حزني. وعند وصولنا إلى أعلى مصطبة في هضبة التاومي. حيث

نصبنا آخر فخاخنا، قال لي ليلي وهو مطرق، بصوت خفيض : «إننا، ويالّلتعاسة، لدينا طعوم تكفي كل الشتاء...»

كنت أعرف أن لدينا طعوماً، وهو ما كنت أدركه بمرارة، فلم أعلق.

وانطلق فجأة نحو طرف الحافة، حيث امتد حقل كبير من العرعر، فانحنى ثم نهض ملوحاً بطول ذراعه بطائر تصورته حمامة صغيرة. وصاح:

—«هذا أول «ساير» !»

واقتربت.

كان هذا بلبل الألب الكبير، الذي أطلق عليه أبي يوماً اسم «السمّان». كانت رأسه بلون رمادي مائل للزرقة، وله رقبة شقراء، أحاطت بها وتدلت منها خصلات مروحية من الريش المرقش الأسود امتدت حتى بطنه البيضاء.... وكان وزنه ثقيلاً في يدي. ورحت أنظر له بحزن، على حين قال ليلي :

—«اسمَع...».

كان عدد هائل من الطيور، على الصنوبرات من حولنا، يزقزق، زقزقات تشبه صيحات القندس، ولكن ليست لها رناتها الفاقعة، وليست فظة فظاظة صخب الطائر اللص، بل على العكس كانت أصواتاً حنجريّة جميلة، محزونة نوعاً ما، تنشد أنشودة الخريف. لقد جاء هذا السمان ليشهد رحيلي.

—«غدا، قال ليلي، سأعد فخاخ بلبل الشعير التي ينصب مثلها باتيستا، وسأنصبها في المساء. وأؤكد لك أنني سأكون صباح الاثنين بحاجة لكيسين كبيرين أعبئ فيهما الصيد».

قلت بخشونة : «أنت ستكون في المدرسة. صباح الاثنين!

— «بالطبع لا! فعندما أقول لأمي إن السمان قد وصل، وإنني يمكنني

الحصول على خمسة عشر أو عشرين فرنكا منه في اليوم. لن تكون هي من الحماقة بحيث تصر على ذهابي للمدرسة، حتى يوم الجمعة ـ وربما للاثنين المقبل ـ أنا مطمئن لهذا!»

عندها، تخيلته وحده، في البراح المشمس، يتوغل في الأحراش والعرعر، بينما أنا جالس تحت السقف المنخفض لفصل من الفصول، أمام سبورة سوداء تعج بالمربعات والمعينات...وجف حلقي فجأة، وغمرتني سورة من الحنق واليأس.

رحت أصرخ، وأبكي، وأضرب الأرض برجلي، وأشهق. ثم أخذت أتمرغ على الحصى، وراح الريفي الصغير يربت على صدري وظهري. فصرخت بصوت جاد:

– «لا! لا! لن أرحل! لا أستطيع الذهاب، لن أذهب! لا! لن أذهب!».

وهبط سرب السمان إلى الوادي، وبدا الاضطراب على ليلي أمام هذا اليأس، فأخذني بين ذراعيه، عاصراً بين القلبين القانطين أضلاع الريفي الصغير الستة عشر:«لا تتسبب لنفسك في المرض! قال. لا يجب أن تتمرغ كالقردة! اسمعني، اسمعني....»

واستمعت له، لكنه لم يكن لديه شيء ليقوله لي، إلا الإعراب عن صداقته. وشعرت بالخجل لضعفي، وتحاملت على نفسي بقوة، وقلت في نبرة واضحة:«إذا كانوا سيرغمونني على العودة للمدينة، سأضرب عن الطعام، ولقد بدأت إضرابي بالفعل، فلم آكل شيئاً هذا الصباح».

وأوقع هذا الاعتراف ليلي في الحيرة:«ألم تأكل شيئا على الإطلاق؟

– لا شيء.

– معي تفاح، قال وهو يفتش في كيسه.

– «لا، لا أريد، لا أريد شيئا» .كان رفضي قاطعاً بما جعله لا يلح عليّ.

وبعد صمت طويل نسبيا، أعلنت :

–«لقد قررت، أن أدعهم يرحلون هم مادام ذلك يرضيهم، أما أنا، فسأظل هنا» . ولكي أؤكد على قطعية هذا القرار، ذهبت وجلست على حجر كبير، عاقداً ذراعي على صدري. وكان ليلي يراقبني متحيراً.

–«وكيف ستفعل ذلك؟»

– أو هوه، هذا أمر سهل جداً. غداً صباحاً، أو ربما هذه الليلة، سأحضر بقجة ملابسي، وسأذهب وأختبئ بالمغارة السفلى أسفل «التاومي» .»

ونظر في دهشة:

– هل ستفعل ذلك؟

– أنت لا تعرفني!

– سوف يبحثون عنك!

– ولن يعثروا عليّ!

– ساعتها سيبلغون رجال الدرك وحراس «الألاووش» .

– بما أن أحداً لا يعرف بهذا المخبأ ـ كما قلت لي ـ فلن يعثروا عليّ هم أيضا. وسأكتب قبل ذلك خطابا لأبي، أتركه فوق سريري، أقول له ألا يبحث عني، لأنه لن يمكنه العثور عليّ، وإذا أبلغ الدرك، فسألقي بنفسي من أعلى جرف. وأنا أعرف أبي، وأعرف أنه سوف يتفهم موقفي، ولن يقول شيئا لأحد.

– لكنه مع ذلك، سيتوتر!

– «وقد يتوتر أكثر إذا رآني أموت بالبيت في المدينة» .

ودخلت هذه الحجة في روعي وأكدت على نهائيَّة قراري. لكن ليلي، أعلن بعد تفكير :«أنا نفسي أرغب جداً في بقائك، ولكن أين ستعيش في التلال؟

– سوف آخذ مؤونة معي. ففي البيت، توجد شيكولاتة، وعلبة بسكويت كاملة.ثم إنني أعتقد، أنك سمعت عن ناسك، ظل عشرين عاماً في مغارة «الباس ـ تون» .وسأفعل أنا مثله وأتعيش على الجذور، والقواقع، والفطر، وأزرع الحمص!

– أنت لا تعرف كيف تطهو هذه الأشياء.

– «سأتعلم. وسأذهب إلى وادي «البوندران» ، وأجمع ثمار «برقوق روميو» ، فهذه ليست بحاجة للطهي... وسأجفف التين، واللوز، وثمار الغبيراء، وأجمع التوت، والخوخ البري...» ولم يبد عليه الاقتناع، فتوترت قليلاً :

–«من الواضح أنك لم تقرأ شيئا أبداً! أما أنا فقد قرأت عشرينات الكتب! وأستطيع أن أقول كل يوم أنه يوجد بشر كثيرون يتدبَّرون حياتهم جيداً في الغابات المتوحشة.... على الرغم من أنها مليئة بالعناكب السامة، التي لا تسقط لك في حلة الحساء، وإنما تقفز في وجهك. وبالثعابين الكبيرة، والخفافيش التي تمص دمك أثناء نومك، والهنود الحمر المفترسين الذين يطاردونك ليسحروا رأسك فتصغر، على حين أنه لا يوجد هنا هنود، ولا توجد حيوانات متوحشة...»وترددت قليلا، ثم قلت : «فيما عدا الخنازير البرية، ربما؟»

– لا، قال ليلي، ليس في الشتاء.

– لماذا؟

– «لأن العطش فقط هو الذي يدفعها للمجيء. وفي الشتاء، يكون لديها ماء، لذا تظل في الجبل، بناحية مرتفع القديس ـ فكتوار...» .

وكان هذا شيئاً عظيماً مطمئناً، لأن الأمعاء المبقورة للأكتع المسكين،

كانت تطاردني أحياناً في أحلامي، وتتمدد بها.

-«الأمر الصعب، قال ليلي، هو كيف ستنام ليلا»

- سأصنع لنفسي مهداً من عشب «الباووكو»، على الأرض في ركن من المغارة، فهو مريح كالمرتبة، ثم سأشرح لك كيف أمكن لبعض الناس أن يتعودوا على كل شيء. أنت، بالطبع، لم تعرف بروبنسون كروزو، ولكني أنا عرفته جيداً... لقد كان بحاراً، يعرف العوم كالسمكة، لكنه لم يكن يعرف كيف يعدو، لأن السفن، لا يوجد فوقها براحٌ يسمح بالجري... لكنه عندما غرقت سفينته، في إحدى الجزر، تعود على الجري السريع، حتى صار يطارد الكباش البرية!

- أو هوه! قال ليلي بتأكيد، ولو أنني لا أعرف هذا الشخص، إلا أنني أعرف الكباش! فإذا كان هو الذي حكى لك هذه الحكاية، فتأكد أنه كذاب كبير!

- «إن ما قلته لك مطبوع، وفي كتاب يباع بالسوق!»

ولم يرد، وكان عليه أن يتحدث بغير أن يتعرض للإحراج :

-«لو أنها كانت عنزات حبلى، لقلت لك إن هذا أمر يحدث، لكنك مثلا، لو حاولت أن تتسلى بمطاردة عنزات أبي...

- ولكن لا! قلت. لقد أردت فقط أن أسوق لك مثلاً يوضح كيف أن البشر يمكنهم التطبع بكل شيء! فإذا حدث لي أن طاردت يوماً عنزة من عنزات أبيك. لن يكون هذا إلا من أجل الحصول منها على بعض اللبن ثم إطلاقها!

- «هذا، قال ليلي، أمر في الإمكان ولن يلاحظه أحد».

واستمرت المحادثة بهذا الشكل حتى الظهر.

وبدأ يقتنع شيئا فشيئا، بشرط أن أظل تحت عينيه في حياتي الجديدة.وأعلن لي أنه سوف يكمل لي مخزون مؤونتي، بأن يسرق جوالاً من البطاطس من مخزن تموين أمه، وأصبعين كبيرين على الأقل من السجق الجاف. ووعدني بعد ذلك بأن يحتفظ لي كل يوم بنصف الخبز الذي يحصل عليه، وبنصيبه من الشيكولاتة. ثم راح، لأنه كان ذا عقلية عملية، يفكر بالنقود.

-«علينا أولا الحصول على دستة من العصافير! أعطيهم نصفها فقط بالمنزل، ثم نبيع الباقي لنزل بيشواري! بفرنك للعصفور العادي، وفرنكين للسمان! وبهذه النقود، يمكنك شراء الخبز من أوبان!

- وأنا سأبيع القواقع كذلك بالسوق!

- والينسون؟ صاح متسائلاً. هناك بائع أعشاب من «فالنتين» يشتري الكيلو بثلاث قروش!

- سأصنع منه حزماً صغيرة، تحملها له!

- ونشتري بكل هذه النقود. فخاخ أرانب!

- وأسلاكاً رفيعة نضع بها أنشوطات! فإذا حصلنا على أرنب بري، سيكون ثمنه على الأقل خمس فرنكات!

- «ونشتري كذلك غراء قوياً كي تلتصق به البلابل حية! فالبلبل الحي، يساوي ستة فرنكات!».

وعندما نهضت للعودة، كان حشد من الزرازير قد انعطف وهبط وحط في غابة الصنوبر. وراحت مئات العصافير تقرقر على قمم الأشجار العامرة.

كنت مذهولاً، وسعيداً.

-«كل عام، قال ليلي، تظل هنا لخمسة عشر يوماً على الأقل. وهي عندما تختار شجرة، تعود إليها كل مساء. فلو أن معنا خمسين فخاً. هل تتصور كم منها كان لنا اصطياده اليوم؟

- قال لي العم جول إن من الممكن تدجينها...

- بالطبع، قال ليلي، فقد دجّن أخي واحداً منها. وهو يتكلم، ولكن بلهجة الأقاليم!

- أوه! لكني أنا، قلت، سأعلمها الفرنسية.

- «هذا، قال ليلي، ليس مؤكداً، لأنها طيور ريفية....».

ونزلنا، نحث الخطى، ونحن نخطط لألف مشروع.

وتخيلتني وأنا أتسكع على جروف «التاومي». تتطاير خصلات شعري على وجهي، ويداي في جيوبي، حاملاً على كتفي زرزورا أليفاً، يعضني برقة في أذني، ويتحدث معي.

كان الصيادان قد توجها إلى «بيشواري»، مغتاظين من تخلينا عنهما. وتناول ليلي الغداء في المنزل معي أنا وخالتي، وأمي، وأختي الصغيرة، وبول.

وكان مهموماً، على حين تصنعت أنا حالة من الجذل الضاج، مما أبهج أمي العزيزة. فرحت أنظر إليها بحنو، على الرغم من أنني كنت قد وطدت العزم على هجرانها في الليلة المقبلة.

◇ ◇ ◇

إني أسأل نفسي في كثير من الأحيان كيف كان لي أن أتخذ بلا أي ندم، وبلا أدنى قلق، قراراً كهذا، لم أفهم مدى خطورته إلا اليوم بعد أن شخت في العمر. فإلى أن يجيء سن المراهقة التعيس، لا تكون أمور عالم طفولتنا بيدنا، لأن الأطفال يأخذون العطاء الرائع للجميع.

كل يوم، وخلال تناول الطعام مع العائلة كنت أسرح بخيالي إلى التلال، أفكُّ من فخ ما شحروراً مايزال حياً.

هذا الدغل، وهذا الشحرور، وذلك الفخ، كانوا كلهم بالنسبة لي لهم من واقعية الحضور ما لهذه اللوحة اللامعة على الحائط، وهذه القهوة بالحليب، وهذه الصورة للسيد «فالبير» التي تطل بشكل مبهم على الحائط.

كان أبي يسألني فجأة: «أين سرحت؟» وكنت أعود للحضور ثانية في غرفة الطعام، ولكن بغير أن أسقط من أعالي الحلم، فقد كان العالمان بالنسبة لي على نفس المستوى.

كنت أجيب مباشرة: «أنا هنا!» ولكن بنبرة احتجاج.

وكان ذلك صحيحا، ففي لحظة، أعود للحضور معهم، لكن ذبابة ما قد تطن أمامي، فيمتثل أمام ناظري في التو مشهد «خور لانسلوت»، الذي تعقبتني فيه ذبابات ثلاث زرقاء مسافة طويلة، وذاكرة الأطفال من القوة، بحيث أنني، في تذكري المفاجئ هذا، كان يتكشف لي ألف تفصيل، كنت أعتقد أنها لن تعلق بذاكرتي. فكأنني الثور الذي يجتر، ويجد في العشب الذي يعيد مضغه طعم الحبوب والأزهار التي رعاها بغير أن يدرك طعمها.

هكذا، تعودت أن أسرح بعيداً عن عائلتي. ولأنني صرت أعيش غالب الوقت، بعيداً عنها، لم تكن مغادرتي لهم هذه أمراً جديداً مخزياً، فكل ما كان يتغير بسببها في حياتي اليومية هو تحليقي بعيداً عن جسدي.

أما، ما الذي كانوا هم يفعلونه خلال هذه الأثناء ؛ فلم أكن أفكر فيه سوى بشكل مبهم، فلم أكن على يقين من وجودهم أثناء ذلك الغياب ؛ أو، لو أنهم تواجدوا بالفعل، فسيكون ذلك بالطبع وجوداً لا واقعياً، وبالتالي، غير مؤلم.

من ناحية أخرى، لم أكن أحلق بعيداً طيلة الوقت ؛ فقد كنت أتعمد العودة والحضور بينهم، فأنبعث فجأة. لأضفي عليهم في هذه الحالة غبطة كبيرة تمحو لديهم دفعة واحدة، أي قلق أصابهم من ذلك الكابوس، فكان كل ما يكون قد حدث مقبولاً ومحجماً أمام ذلك الحضور السعيد.

‹› ‹› ‹›

بعد الغداء، غادرنا ليلي، قائلا إن أمه تنتظره لكي يصحن لها الحمص، لكنه كان في الحقيقة قد ذهب لكي يتفحص محتويات مخزن تموينهم، ولكي يعد لي مؤونتي، فقد كان يعرف أن أمه خلال هذه الأثناء بالحقل.

وصعدت بعد ذلك لغرفتي، بحجة جمع أشيائي الصغيرة الخاصة التي أريد أخذها معي للمدينة ـ وكتبت خطاب الوداع.

أبي العزيز

أمي العزيزة

أولا، حافظا على أعصابكما. فلن يفيد التوتر بشيء. لقد التقيت بقدري؛ وهو: التنسُّك.

وقد تجهزت له بما يكفي.

بالنسبة لدراستي، فقد سبق السيف العزل، الآن، لأنني صرفت النظر عنها.

وإذا لم أنجح في خياري هذا، سأعود للبيت. أنا لا أجد سعادتي، إلا في المغامرة، ولن يكون في هذه المغامرة خطر، فقد أخذت معي كيسين من أسبرين مصانع الرون. فلا ترتعبا عليّ.

أيضا، لن أكون وحيداً. فثمة شخص (لا تعرفونه) سيأتيني بالخبز، ويصحبني أثناء العواصف.

لا تبحثوا عني، فلن تستطيعوا العثور علي.

اهتم بصحة أمي. فسوف أفكر فيها كل مساء.

وعلى العكس مما تظن، يمكن أن تفخر بي، فمن أجل أن يكون الإنسان ناسكاً، لابد له من الشجاعة. وأنا لديّ هذه الشجاعة. وهي لا تهتز.

وفي عودتكم فيما بعد، لن تستطيعوا التعرف عليّ، إلا إذا بادرتكم أنا بالقول: «إنه أنا ابنكم».

سيشعر بول بالغيرة مني، ولكن لا يهم. قبلوه لي كثيراً، نيابة عن أخيه البكر. قبلاتي الرقيقة لكم، وخصوصاً لأمي العزيزة.

ابنكم

مارسيل ـ راهب التلال

بعد هذا ذهبت أبحث عن حبل كنت قد لمحته في كومة الكتب. كان طوله حوالي متران، وكانت بعض ضفائره قد تلفت من الاستعمال، بسبب كثرة الاحتكاك بحواف الكتب. ومع ذلك تصورت أن هذا الحبل من القنب بمقدوره أن يحتمل وزني، ويمكنني من النزول من نافذة غرفتي. فخبأته تحت مرتبتي.

وأخيراً، أعددت «البُقْجة» من بعض الملابس الداخلية، وزوجٍ من الأخفاف، والسكين الحادة، وبلطة صغيرة، وشوكة، وملعقة، وكراسة، وقلم رصاص، ولفة

من الخيوط، وكسرولة صغيرة، وبعض المسامير، وبعض النفايات القديمة المفيدة. وخبأت كل هذا تحت سريري، عازماً على أن أضع هذه الأشياء ببقجة صغيرة باستخدام غطاء السرير عندما يأوي الجميع للنوم.

وكان الكيسان القماشيان مطبقين وموضوعين في دولاب. فأخذتهما وعبأتهما بمأكولات متنوعة، كاللوز الجاف، والقراصيا، وبعض من الشيكولاتة، تمكنت من الحصول عليها من اللفائف والبقج المعدة للعودة للمدينة.

وقد أثارتني حالة الإعداد السرية هذه. فرحت أنبش كل الحقائب بلا تحفظ ـ بما فيها حقائب العم جول ـ مقارنا نفسي بروبنسون كروزو، عندما راح يفتش في مخازن السفينة الغارقة، ويكتشف الكنوز الألف، التي كانت في هيئة شاكوش، أو لفة خيط، أو حبة قمح.

وعند انتهائي من كل تجهيزاتي، قررت أن أخصص الساعات المتبقية لي لقضائها مع أمي.

رحت أقشر البطاطس بعناية، وأغسل الخس. وأجهز المائدة، وأنا أذهب، من وقت لآخر وأقبل يدها.

وكان العشاء الأخير رائعاً ووفيراً، كما لو أنه كان عشاء الاحتفال بحادث سعيد.ولم يتحدث أحد بأية نبرة أسف، بل على العكس، بدت عليهم جميعاً السعادة بفكرة عودتهم لأعشاش نملهم بالمدينة.

فقد تحدث العم جول عن مكتبه بالعمل، وباح أبي بأمله في أن يحصل على جائزة الأكاديمية مع نهاية العام. وتحدثت الخالة روز، ثانية، عن الغاز... فرأيت بوضوح أنهم كانوا قد رحلوا بالفعل للمدينة.

أما أنا، فبقيت...

◊ ◊ ◊

طرق حجر صغير ضلفة النافذة. وكان ذلك هو الإشارة المتفق عليها. وكنت مرتدياً كل ملابسي، ففتحت النافذة بهدوء. وتعالت إلى سمعي وشوشة بالليل: «أجاهز أنت؟».

وأجبت، بأن أنزلت بطرف خيط «بقجتي». ثم شبكت «رسالة الوداع» التي كتبتها بدبوس في المخدة، وربطت الحبل بإحكام في حديد النافذة. وبعثت بقبلة باتجاه غرفة أمي، عبر الحائط، ثم أمسكت بالحبل ورحت أنزلق حتى الأرض.

كان ليلي بانتظاري، تحت شجرة الزيتون. وقد تمكنت من تمييزه بصعوبة. فخطا هو خطوة للأمام، ثم قال بصوت خفيض :«هيا بنا!».

ورفع من على العشب كيساً ثقيلاً، حمله على كتفه سانداً إياه على ظهره.

«هي البطاطس، والجزر، والفخاخ. قال :

-«أنا معي خبز، وسكر، وشيكولاتة، ومَوْزتان. سِرْ بنا، ولنتحدث فيما بعد».

وصعدنا حتى العين الصغرى، في صمت.

كنت أتنسم بلذة هواء الليل البارد. وكنت أفكر، بلا قلق، في حياتي الجديدة التي بدأت. ومضينا، مرة أخرى، في الطريق الصاعد إلى «التاومي».

كانت الليلة هادئة، لكنها معتمة، فلم يكن بها نجم واحد ظاهر في السماء. وشعرت بالبرد. ولم تكن حشرات الصيف الطنانة، مخلوقات الطبقة الدنيا للأجازة، تخدش الصمت الحزين للخريف غير المرئي. لكن الليل كان يردد مواء خَبلٍ بعيد، وصفير نداءات بومة، ترد على الصدى المحزون الآتي من جهته.

كنا نسير بسرعة، كهاربين. مثقلين بما نحمله على أكتافنا، لا نتفوه بكلمة. وعند جانبي الممر، كان للصنوبرات التي تهتز شكل حديد السجن، وقد

غطت رائحة الورد على كل الروائح.

وبعد نصف ساعة من السير، وصلنا أمام حظيرة باتيستا. فرحنا نجلس على حجر العتبة الكبير لنستريح لحظة. وبادرني ليلي بالحديث :

—«سوف لن آتي إليك إلا بشكل نادر!»

– لماذا، هل سيراقبك أبوك؟

– أوه! لا. ليس الأمر هكذا.

– إذن ما السبب؟

وتردد، ثم قال: «أعتقد أنك لن تفعل ذلك.»

– أفعل ماذا؟

– أن تظل بالتلال. وأتصور أنك تسرعت في هذا القرار، لكنك في النهاية...» ونهضت، مجروحاً في كبريائي.

– «هل تتصورني بنتا، تغير رأيها في كل لحظة؟ أتعتقد أنني أهذي؟ حسنا، عليك أن تعرف أنني حين أقرر شيئاً، أفعله! ولو لم تأت معي، لرحلت وحدي! فلو أنك خائف، ما عليك إلا أن تبقى هنا، فأنا أعرف طريقي!».

وواصلت الطريق بخطوة واثقة. فنهض، وحمل الكيس على ظهره، وحث خطاه ليلحق بي، ثم عبر أمامي، وتوقف، ونظر لحظة إليّ وقال بانفعال:

—«إنك رائع!».

ونظرت إليه بتعاظم، ولكني لم أجب. وراح ينظر لي ثانية ثم قال :

—«أنت لا يوجد مثلك اثنان!».

ثم أولاني ظهره وواصل السير... لكنه توقف من جديد، بعد عشرة خطوات، وبغير أن يلتفت قال ثانية : «بلا جدال، أنت عظيم!».

وبدا لي هذا الإعجاب المذهول الذي داعب خيلائي، أمراً مقلقاً للغاية، وكان علي أن أضاعف من جهدي في موقفي هذا لكي أظل محتفظاً بهذه العظمة. وأوشكت على النجاح في ذلك إلى أن خيّل لي أنني سمعت في البعيد، إلى يميننا، ما يشبه انهيال الأحجار. فتوقفت، وأرهفت أذني. وعادت الضجة من جديد: «هذه، قال ليلي، هي ضجة الليل.... لا نعرف أبداً من أين تأتي. لاحظ أنها مخيفة لحدٍ ما دائماً، لكنها ليست خطرة، وسوف تتعود عليها سريعاً.

وعاود السير، ووصلنا إلى حافة الجرف الذي يشرف على «الجاريت»... وبدأت غابات الصنوبر الكثيفة للتاومي تظهر على يسارنا. وكان ضباب الفجر يصعد من الأرض متخللاً جذوعها، وهو يلف بنفثاته الحلزونية الأحراش.

وعلا نوع من النباح، الحاد القصير، وتردد ثلاث مرات، بما أصابني بالرعدة: «أهذا صياد؟»

— لا، قال ليلي، إنه ثعلب. وهو يفعل هذا عندما يطارد بعض الحيوانات ليدفع بها نحو أنثاه، فهو ينذرها بهذه الطريقة.

وعلا الصياح القصير الوحشي ثلاث مرات أخرى. وفكرت في أن كتاب التاريخ الطبيعي الذي كنت أدرس فيه، ذكر بأن صوت الفيل هو «النهيم»، وأن صوت الأيل هو «النزيب»، وصوت الثعلب هو «العواء».

ولأنني حددت لهذا الصوت اسمه، فقدت هذه الصياحات جبروتها المبهم، فقد كان هذا الثعلب يعوي، لا أكثر ولا أقل. وشعرت بالاطمئنان التام، فقد حملت اسم هذا الصوت مائة مرة في حقيبتي المدرسية، ورحت ألقّن ليلي جانباً من معلوماتي العلميّة المشجعة، حين مر ظل، إلى يساري. في عمق الضباب الذي يتخلل الصنوبر، وكان مروره عالياً، وسريعاً تحت الأغصان المتدلية.

—«ليلي. قلت له بصوت خفيض، لقد لمحت ظلا يمر!»

– أين؟

– هناك.

– أنت تحلم، قال، فمن الصعب رؤية ظل في الليل...

– قلت لك إنني لمحت شيئاً يعبر!

– ربما كان الثعلب!

– لا... لقد كان طويلاً... ألا يكون هذا أخاك ذاهباً يجمع بلابل الشعير من فخاخه؟

– أوه! لا! فالوقت مبكر جداً... ومازالت على انتهاء الليل ساعة على الأقل...

– هل يكون هذا أحد الصيادين المخالفين؟

– «هذا أمر مستبعد... ولكنه ربما يكون...»

وتوقف عن الحديث ونظر بدوره ناحية الصنوبر، في صمت: «فيم تفكر؟» .وأجاب على سؤالي بسؤال: «كيف كان شكل هذا الظل؟

– شبيهاً تقريباً بظل رجل.

– أهو طويل؟

– الواقع أنه كان بعيداً... أجل، طويل بعض الشيء.

– هل كان يرتدي معطفاً؟ أعني معطفاً طويلاً؟

– أنت تعرف أنني لم أره جيداً، لقد رأيت ما يشبه الظل الذي تحرك، ثم اختفى وراء صنوبرة أو عرعرة. فلم تسألني هذا السؤال؟ هل تفكر في شخص يرتدي معطفاً؟

– ربما كان هو، قال، فأنا لم أره أبدا، لكن أبي رآه.

– ومن هذا؟

– فيلكس الكبير.

– أهو أحد الرعاة؟

– نعم، قال. إنه راع من الزمن القديم.

– ولماذا تقول من الزمن القديم؟

– لأن حكايته حدثت في الزمن القديم.

– لا أفهم شيئاً.

واقترب مني، قائلاً بصوت خفيض: «لقد مات منذ خمسين سنة على الأقل. ولكن من الأفضل ألا نتحدث عنه، فهذا الفعل قد يدعوه للحضور!». ولأنني نظرت إليه، مصعوقا، همس في أذني: «إنه شبح!».

وكان لهذا وقع مقلق على نفسي، التي رحت أطمئنها، بأن ضحكت ضحكة صاخبة.وقلت بنبرة تلوك السخرية: «هل تؤمن، أنت، بالأشباح؟».

وبدا عليه الخوف وقال بصوت خفيض: «لا تصح بصوت عال هكذا! قلت لك: إن هذا قد يدعوه للحضور!».

ولكي أرضيه، أخفضت من نبرة صوتي.

–«حسنا، أعرّفك أن أبي، الذي هو رجل عالم، وعمي، الذي يعمل بالمحافظة، قالا إن حكاية الأشباح هذه نكتة! فسيرة الأشباح تضحكهم. وتضحكني أنا أيضا!» أجل، تضحكني جداً.

– لكن أبي أنا، لا يضحكه ذلك، لأنه رأى الشبح بنفسه، رآه أربع مرات.

– إن أباك رجل شجاع، لكنه لا يعرف حتى القراءة!

– أنا لم أقل لك إنه يعرف القراءة، قلت لك فقط: إنه رأى الشبح!

– أين رآه؟

– «ذات ليلة، أثناء نومه بحظيرة باتيستا، سمعه يسير خارجها. وكان يتأوه تأوها شديداً كأنه شخص يموت. ونظر أبي من شق بالباب، فرأى راعياً ضخماً، بمعطفه وعصاه، وقبعته الكبيرة. وكان كله رمادي اللون من أعلى رأسه لأخمص قدميه».

وأخفضت من صوتي لكي أرضيه :

–«ربما كان الذي رآه أبوك راعيا حقيقيا؟»

– «أوه! بالطبع لا! والدليل على ذلك، أن أبي عندما فتح الباب. لم يجد شيئا، لا راعي ولا شبح، ولا شيء». وكان هذا دليلا دامغاً.

–«وما الذي حدث بعد ذلك، ما الذي كان يريده هذا الشبح؟»

– يبدو أنه كان راعياً غنياً جداً، فقد كان يمتلك ألف كبش على الأقل، وكان الأشقياء قد اغتالوه، بأن أغمدوا في ظهره خنجراً واستولوا على كيس كبير مليء بقطع الذهب. لذا فهو يعود دوماً ليتشكي، وليبحث عن ذهبه.

– لكنه يعرف تماماً أننا لسنا نحن الذين أخذناه.

– هذا ما قاله له أبي.

– هل حدثه أبوك؟

– «بالطبع، عندما عاد في المرة الرابعة. حدثه من وراء الباب. قال له : «اسمع يا فيلكس، أنا راع مثلك. ولا أعرف أين ذهبك. فلا تعد ثانية وترهقني لأنني بحاجة للنوم». عند ذلك، لم يرد الشبح بكلمة، لكنه راح يتنهد عشر

دقائق على الأقل. فغضب أبي، وقال له : «أنا يا فيلكس أحترم الموتى، لكنك لو واصلت على هذا النحو، سأخرج، وأقوم بالتصليب عليك أربع مرات وأركلك في مؤخرتك ست ركلات».

– أقال له هذا؟

– «نعم، قال له هذا، وكاد أن يفعله، لكن الآخر فَهم، فرحل، ولم يعاود الظهور ثانية».

كانت هذه القصة سخيفة، وقررت ألا أصدقها، فتذكرت بعض الكلمات المفضلة لأبي: «بصراحة، قلت له إنني أجدك من البلاهة بحيث أنك قصصت عليّ هذه الترهات، التي ليست سوى خرافات. فالشبح، نوع من تخيلات العامة. والتصليب نزعة ظلامية!»

– «أوهوه! قال، علامة الصليب، سرُّها باتع مع الأشباح! وهذا أمر لا يستطيع أحد القول بعكسه! فالجميع سيقولون لك إنها الضربة الفعالة».

وضحكت هازئا ـ في سري ـ وسألته :

– وهل تعرف كيف تقوم بعلامة الصليب؟

– طبعا! قال :

– وكيف تكون هذه الحركة؟

وقال بعملها بطريقة احتفالية عدة مرات. وقلدته، وأنا أهزأ. عندئذ، علا طنين في الليل. واصطدم بي شيء ما صدمة خفيفة، لكنها جافة، في منتصف جبهتي. فصدرت رغما عني صرخة ضعيفة. وانحنى ليلي، والتقط من الأرض شيئا :«إنها حشرة قرنبية» قال. وسحقها بنعله، وواصل السير. وتبعته، وأنا أتلفت خلفي من حين لآخر.

كنا قد وصلنا أسفل قمة التاومي تقريبا، ورأيت بوضوح حدود الجرف الذي يطل على الممر الواقع تحت الأرض الذي سأعيش فيه مغامرتي الكبرى.

وتوقف ليلي فجأة: «هناك شيء نسيناه!»

كان صوته يشي بقلق شديد.

—«وما هو؟».

ولكنه بدلاً من أن يجيبني، هز رأسه، ووضع كيسه على الأرض بين اللافندر وبدأ يناجي نفسه.

—«أن ننسى هذا، هذا شيء غير ممكن! كان عليَّ أنا أن أفكر في ذلك. ولكنك أنت أيضاً، قد نسيته... والآن، ماذا سنفعل؟».

وجلس على صخرة، وهو يهز طيلة الوقت رأسه، عاقداً ذراعيه، صامتاً. وأثارتني هذه الحركات الإيمائية المسرحية بعض الشيء، فقلت بقسوة :

—«ماذا دهاك؟ قلت له، هل جننت؟ ما هو هذا الذي نسيناه؟»

وأشار لي إلى الجرف وهو ينطق بهذه الكلمة السحرية: «الإيبو»

— ماذا تريد أن تقول؟

— الإيبو الكبير.

— ماذا؟»

فاستثار غضباً وقال بقوة:

—«هذا الذي أراد أن يفقأ أعيننا! طائر الغراندوق! فهو يسكن في سقف الممر، وهو لديه أنثاه بالتأكيد... نحن لم نر إلا واحداً، وأراهنك بدستة فخاخ أنه يوجد اثنان!».

كان الخبر مرعباً، ففي بعض الأحيان مهما احتطنا، نمر بأوقات يخوننا فيها

القدر.

اثنان من طائر الغراندوق، خيِّل لي أنهما يطيران حول رأسي. يفتحان مناقيرهما الصفراء عن ألسنة سوداء، بالأعين الخضراء المزرقة، والمخلب المعقوف، أكثر هولا بألف مرة من الوصف الذي وصفته لهما، وهو الأمر الذي تأكّد لي من كوابيسي... فأغلقت عيني بكل قوتي، وتنفست بكل عمق.

– لا، لا هذا ليس ممكنا، إن فصل الأستاذ بيسُّون، بمربعاته، ومعيَّناته، وواجبات المواطن، أفضل لي من هذا.

وردد ليلي : «هناك اثنان بالتأكيد!»

عندئذ، تعاظمت بدوري وقررت أن أعدل من موقفي عندما تأتي اللحظة التي تتطلب ذلك. فأجبته ببرود : «ونحن أيضاً، إننا اثنان. فهل أصابك الخوف، مثلاً؟

– «نعم، قال، نعم، أنا خائف. فأنت لا تضع في حسبانك شيئاً. فنحن قد رأينا الإيبو في النهار، ولذا لم يتحرك.... لكنه من كائنات الليل، التي تأتي، بينما أنت نائم لتفقأ عينيك... «فالجروسيبو» ، أثناء الليل، خطر مثل الصقر!».

وفكرت أنني لو واصلت جرأتي، فقد يرفض أن يتبعني. فأجبت بوقار :

–«ولهذا فسوف ننتظر طلوع النهار، لنذهب ونهاجمها! بالسكين الحادة المثبتة بطرف عصا، وسآخذ أنا على عاتقي أن أشرح لهذه الفراخ أن المغارة قد غيرت سكانها! أما الآن فكفانا بغبغة. ولنعد أنفسنا!».

ومع هذا، لم أتحرك. فنظر لي ثم قام دفعة واحدة.

–«معك حق! قال بحمية. فهذه طيور قبل كل شيء! وما علينا إلا أن نقطع غصني عرعر. وسأبري غصني بشكل مدبب. وسوف نسفّدها كما نسفد الفراخ!».

وخطا أربع خطوات، ثم فتح سكينة الراعي التي يحملها، وهبط إلى الغابة

وشرع في العمل. ورحت أفكر، وأنا جالس على الحصى تحت صنوبرة.

وبينما هو يعمل، قال : «إذا لم يرغبوا في الخروج من شقهم، فسوف أنفذ عصاتي فيهم، وسوف تسمعهم يعولون!».

ولاحظت أنه لم يكن يمزح، وأنه كان قد عزم أمره على مهاجمة «الجروسيبو». فقد كان هو العظيم، وأصابني الخجل من جبني.

عندئذ، ناديت لنجدتي أحد أبطالي المفضلين : روبنسون كروزو.... لو أنه، عند استقراره في مغارته الأولى، وجد هذين الطائرين، ما الذي كان سيفعله؟ ولم يكن صعبا تخيل هذا :كان سيخنقهما في التو وينتفهما، شاكراً العناية الإلهية، قبل أن يشويهما على سفود من قصب البامبو! فإذا ما تخاذلت أنا أمام هذه الفراخ، فلن يكون لي الحق في أن تضمني رواية من روايات المغامرات، وسوف تشيح عني بوجهها الشخصيات المصوّرة التي كانت تنظر إليّ طيلة الوقت في مواجهتي لكي لا ترى «قلب سكواو».

فضلا، عن أنها لم تعد بالنسبة لي تتسمى «بالغراندوقات»، وهو ما يجعلها حيوانات جبارة، ومتوحشة، كما يدل على ذلك اسمها، وإنما أصبحت «جروسيبو»، وهو الذي جعلها تبدو في نظري أقل منعة.

فأمسكت بيد واثقة سكيني الحادة، ورحت أسنها على حجر.

وبقي الشبح. ورحت أردد التعبير القاطع لأبي : لا توجد أشباح، وبعدها رسمت في الخفاء علامة الصليب خمس أو ست مرات، كي تشطرها نصفين.

وخرج ليلي من الغابة. حاملاً غصنين مستويين تماما وأطول من قامته ، أعطاني واحداً منهما.

وأخرجت خيطاً طويلاً من جيبي، وعلى الطرف الأكثر دقة لعصا العرعر، ثبتت مقبض السكين الرهيبة. وراح ليلي، إلى جواري، يبري سلاحه بعناية،

كما لو كان يبّري قلما من الرصاص.

وحولنا تخلل الفجر الضباب الشاحب، بضوء منتشر، وبدت بعض السحب القطنية الصغيرة فوق أفرع الصنوبر وأعلى طرف الأحراش. وكان الجو بارداً.

وارتخت أعصابي، التي كانت مشدودة طيلة الليل، فجأة، وأحسست كأن رقبتي لا تستطيع حمل رأسي إلا بجهد جهيد من إرادتي ؛ عندئذ، أسندت للحظة ظهري وعنقي إلى جذع الصنوبرة، وراحت أجفاني المثقلة تدفّئ حدقتي المرمّلتين. ورحت بالقطع في النوم. على حين، سمعت، بعيداً، أسفل غابة الصنوبر، طقطقة جذع جاف. فناديت ليلي بصوت خفيض : «هل سمعت؟»

- هذا أرنب! قال .

- الأرانب لا تصعد الأشجار.

- «صحيح، فلربما كان ثعلباً إذن».

وأضاف، وهو يبري غصنه: «أنت رائع!».

وكدت أقول له إن إجابته سخيفة، حين بدأ يلتمع ضوء واهن، بين الجذوع السوداء، رأيت فيه ظلاً طويلاً، تحت قبعة عريضة يتدلي منها وشاح طويل، ومر الراعي بخطوات بطيئة، أمام بعض الخراف البنية المجعدة، وفي ظهره بين كتفيه، كان مقبض الخنجر الذي يشبه الصليب المعمد...

وبيد مرتجفة، رسمت باتجاهه علامة الصليب أربع أوخمس مرات. ولكنه بدلاً من أن يسقط مزقا، استدار الشبح ناحيتي، وهو يرسم هو الآخر علامة الصليب، رافعاً عينيه للسماء في تحدٍ وأقدم نحونا وهو يضحك ساخراً... وأردت أن أصرخ، لكن الخوف حبس صرختي في حلقي وفقدت الوعي.

وشعرت بيدين تمسكانني من كتفي فرحت أجأر على حين سمعت صوت ليلي، قال : «إيه! إنها ليست ساعة النوم!»

وشدني ثانية، لأنني وقعت على جانبي.

وتلعثمت : «هل رأيت؟»

– بالطبع، قال. رأيتك تسقط! ولحسن الحظ أن كل هذا السعتر كان هنا، فقد كان من الممكن أن تتهشم رأسك! إلى هذا الحد أنت نعسان؟

– أوه! لا، قلت. لقد أفقت. ألم تر الشبح؟

– «لم أر شيئاً، ولكني سمعت صوتا آتيا من الأعالي... عموماً، ربما كان هذا موند دي باربيون... وعلينا أن نحذر كي لا يرانا... انظر، شوكتي!»

كان قد قشر لحاء الغصن، وبدا الخشب ناعماً كالرخام. وجعلني أتلمس طرف الغصن، الذي كان حاداً كطرف سكّيني...

وبدت بضع نجمات شاحبات في طرف السماء، ناحية سان ـ باوم. ونهض: «نحن جاهزون، قال. ولكن النهار لم يبزغ بشكل كاف بعد من أجل المعركة المنتظرة. ولدينا الوقت لكي نمر من طريق (فونت بريجيت). لكي نملأ زجاجاتك.»

وتبعته، بين اللافاندر المبلل بالطل والندى.

كانت «فونت بريجيت» تقع إلى أسفل يسار التاومي تحت حافة صغيرة، عبارة عن حفرة مربعة كبيرة كأنها قصعة البناء، التي بلا زاويتين في عمقها. فقد حفرها بعض رعاة الماعز في الزمن الغابر بصبر في الصّخر، أسفل شق يسيل منه الماء، وكانت دائما ممتلئة لنصفها بماء مثلج.

وأرقد ليلي تحت الماء زجاجة فارغة على جانبها، فراحت تبقبق وتهدل كأنها حمامة برية.

–«سوف تأتي إلى هنا كي تشرب، قال. إنها لاتجف أبداً، وهي تعطي على الأقل عشر لترات في اليوم!».

ووجـدت ذريعـة كنت أبحث عنهـا منذ بعض الوقت . فـتـصنعت القلق وقلت: «عشر لترات؟ هل أنت متأكد؟

– «أوه! نعم وربما خمسة عشرة!»

وبذهول مستنكر، صحت : هل تهزل ؟

– أوه! لا أبداً قال. فإذا قلت لك خمسة عشرة عليك أن تصدقني!» .

عندئذ، صحت : «وماذا تراني فاعلا بخمسة عشر لتراً من الماء؟»

– وهل ستحتاج لشرابك أكثر من هذا ؟

من هذا ؟

– لا، ولكن كيف سأغتسل؟

– للاغتسال، يكفي حِفَانٌ من الماء !

وسخرت .« هذا من أجلك، ربما، ولكن بالنسبة لي فأنا أتصبّن من أعلى إلى أسفل جسمي !

– لماذا؟ هل أنت مريض؟

– لا، ولكن يجب أن تفـهـم أنني ابن مـدينة، وهذا مـعناه أني مليء بالميكروبات. والميكروبات لايجب الثقة فيها !

– وما هي هذه ؟

– إنهـا نوع من القـمـل، لكنهـا صـغيرة بحيث لاتستطيع رؤيتهـا. فإذا لم أغتسل بالصابون كل يوم، فسوف تقرضني شيئاً فشيئاً، وذات صباح ما ستجدني ميّتا في الكهف ولن يكون أمامك إلا أن تذهب للبحث عن معول لكي تحفر لي قبراً .

وأذهل هذا المصير المؤسف ليلي العزيز

–« هكذا ! سيكون هذا عملاً أحمق ! »

وبسوء نية مبيّت خسيس. هاجمته في التو .

– « إنه خطؤك، أيضاً. فإذا لم تكن قد أكدت لي أننا في فونت بريجيت سنجد ماء بقدر ما نرغب... »

وبدا عليه اليأس .

ولكني أنا لم أكن أعرف! فليس عندي ميكروبات ! ولا أعرف حتى ماذا يسموبها بلغة الريف! وأنا لا أستحم سوى يوم الأحد، مثلي مثل جميع الناس! وحتى باتيستا فقد قال إن هذا أمر طبيعي وإن كثرة الاستحمام تصيب بالمرض! والسيد موند دي باربيون، لم يستحم أبداً في حياته، وقد تخطى السبعين، وانظر كيف أنه قوي!

– هيا، هيا، لاتبحث عن عذر.. فهذا مرفوض، مرفوض تماما، إنها كارثة، ولكن في نهاية الأمر، أنت لم تكن تقصدها.. إنه القدر.. وهو أمر مكتوب...

ومستندا إلى عصاتي، قلت بلهجة احتفالية :

–« وداعاً، لقد هزمت. وسأعود لبيتي ».

وصعدت باتجاه الهضبة، وكان الفجر قد سجّف باللون الأحمر الحواف البعيدة لقمة «الروح القدس» .

وبعد أن قطعت عشرين متراً، ولم يكن قد تبعني، توقفت، لأنني خشيت أن يفقدني ببصره في الضوء الضعيف للصباح الباكر. عندئذ غرزت كعب عصاي في حصى الدغل، وأمسكت بها بيدي الاثنتين، وتركت جبهتي تسقط على ذراعي، في حركة المقاتل الرازح من الإرهاق .

وأحدثت هذه المناورة تأثيرها في التو، فقد لحق بي مسرعاً، وأخذني بين ذراعيه: «لا تبك، قال، لاتبك... »

وضحكت ساخراً : «أنا ؟ أبكي ؟ لا، ليست لدي الرغبة في البكاء، بل لي رغبة في العض! نهايته، لنتوقف عن الكلام .

– أعطني أكياسك، قال. بما أن هذا كان خطأي، فسأحملها عنك.

– وكيسك ، ماذا ستفعل به؟

– سأتركه هنا. وسأعود لاخذه أثناء النهار. أما الآن، فعلينا أن نسير بسرعة، قبل أن يعثروا على خطابك.. فأنا على يقين من أنهم ما زالوا نائمين...

وراح يخب أمامي ؛ وتبعته بغير أن أفوه بكلمة، ولكن وأنا أبعث. من وقت لآخر، بتنهيدة يأس.

وبدا المنزل من بعيد، شبه أسود، وميت. ولكننا عندما اقتربنا، انقبض قلبي، فقد كانت مصاريع نافذة غرفة أبي محاطة بشعاع من نور .

– أراهنك أنه بصدد ارتداء ملابسه! قلت .

– إذن، فهو لم ير بعد شيئاً، هيا أسرع!

ووضع لي السلم القصير وتمكنت من الإمساك بالحبل الذي مكنني من النزول في رحيلي، وأمن عودتي. ثم ساعدني على رفع بقجتي .

وراء آخر سحب الليل، أنشد بلبل فجأة، وبزغ النهار على إخفاقي.

–سأصعد لإحضار كيسي، ثم أنزل .

كان خطاب وداعي في مكانه . فسحبت الدبوس الذي شبكته به ، ومزقت الورقة في ألف قطعة صغيرة وقذفت بها، في حفنتين أو ثلاث، من النافذة. التي أغلقتها بلاضجة .

عندئذ، وفي الصمت. سمعت ما يشبه المحادثة بصوت خفيض، كانت آتية من غرفة أبي .كان يتحدث بسرعة شديدة، بروح شبه مرحة حتى خيل لي أنني ميزت ضحكة في حديثه.. أي نعم، كان يضحك من نهاية الإجازة... كان يضحك، عند استيقاظه، لفكرة أنه سيعود إلى دُرْجِه وأقلامه التعسة، وحبره وطباشيره ....

وخبأت بقجتي تحت سريري، فلو اكتشفوها. سأقول إنني أردت أن أخفف حمولة أكياس أمي. ونمت، مصابا بالخزي،... لقد أصابني الخوف. فلم أكن إلا جباناً، قلب «سكاو» . وقد كذبت على أبوَيّ، وكذبت على صديقي، وكذبت على نفسي. وحاولت البحث عن عذر بلا طائل فشعرت أنني سأبكي، فسحبت الغطاء السميك على ذقني المرتجفة، وهربت في النوم...

عند استيقاظي . كان النهار ينفذ من فرجة النافذة، ولم يكن بول في سريره. ففتحت النافذة، وكان المطر يهطل. ولم يكن الرعد يدوي ويقصف، وإنما كان المطر المدرار، المنتظم، يتساقط في قطرات صامتة.

وسمعت فجأة ضجة عجلات، ورأيت فرانسوا يظهر من زاوية البيت، ممسكا برأس بغله، ثم ظهرت العربة، كانت محاطة بحقائبنا، و كانت تضع إلى يسارها ابن العم الصغير، وإلى يمينها الأخت الصغيرة. واستنتجت أن أمي وبول قد رفضا الركوب في العربة، التي كانت فضلاً عن ذلك تعج بما عليها من أشياء .وتبعها العم جول، تحت مظلة أخرى، على دراجته، ورأيتهم يتباعدون على طريق العودة التعيس .

ووجدت العائلة حول المنضدة، بصحبة ليلي، يفطرون بشهية مفتوحة. ولاقى ظهوري بينهم بعض الترحيب. فقد كان أبي في حالة من المزاح.

–في الليلة الأخيرة، لم يمنعك الأسى من النوم.

— كان يشخر أثناء نومه! صاح بول. لقد شددته من شعره ليفيق، ولكنه لم يحس !

— لقد كان مرهقاً جداً! قال أبي. الآن أفطر، فالساعة بلغت التاسعة، ونحن لن نصل إلى البيت قبل الواحدة بعد الظهر، رغم نجدة أمنيبوس الأحد!

والتهمت شطائري . كنت خجلاً أمام ليلي، من إخفاقي، ولم أكن أنظر إليه إلا خلسة .

ولأني حرت ماذا أقول ، سألت :

—لماذا رحل الآخرون الآن ؟

— لأن فرانسوا لابد أن يحمل خضرواته إلى السوق قبل العاشرة، قالت أمي. وسوف تنتظرنا الخالة روز عند «دوريك» على موقف الأمينبوس .

ورحلنا تحت المطر، ملتفين بأوشحتنا. وكان ليلي، حاملاً كيساً، يريد أن يصطحبنا، وكانت بعض الجداول تسيل في الأخاديد، وقد خفت كل ضجة، ولم نلق في طريقنا أحدا .

عند طرفي القرية، وأمام البوابة الخضراء، كان الأمنيبوس في الانتظار .

كانت الخالة روز قد استقرت به بالفعل مع الأطفال، وسط جمع من الفلاحين الراحلين يوم الأحد.

كان الأمنيبوس عبارة عن عربة طويلة خضراء، من سقفها تدلت ستائر قماشية، مزخرفة بأسجفة من الخيط، كان حصاناها أكدفين، وكان الكمساري يرتدي لفاعاً رمادياً، وقبعة قماشية مشمعة، وقد نفخ في صفارته لكي ينادي على المتأخرين.

وودعنا ليلي تحت أعين المسافرين . وقبلته أمي، مما جعل وجهه يزداد

احمراراً، ثم جاء دور بول، وعندما شددت على يده بفتوة، رأيت دموعاً في عينيه، وقد التوت شفته السفلى علامة البكاء، فتقدم أبي نحوه : «هدىء من روعك، قال ، أنت لن تبكي كطفل صغير أمام هؤلاء الناس الذين يراقبوننا!»

لكن ليلي أخفى رأسه وراء كيسه، وراح ينكش الأرض بمقدمة خفيه. وكانت لديّ أنا الآخر رغبة في البكاء .

-« لابد أن نفهم، قال أبي، إنه في الحياة، توجد أشياء أخرى غير المُتع، أنا أيضا أرغب جداً في البقاء هنا، وأن أعيش في التلال! حتى في كهف! حتى وحدي، كأنني ناسك! ولكن ليس بإمكاننا أن نفعل دائماً ما نرغب فيه! » .

وخضني التلميح بالناسك، ولكني فهمت أنها فكرة طبيعية، بما أنها كانت لدي أنا أيضا، وأكمل : في يونيو المقبل، سيتقدم مارسيل لامتحان شديد الأهمية، وعليه أن يعمل كثيراً هذا العام، بصفة خاصة في الهجاء. فهو يضع لامين في كلمة «تدلّه» ، وأنا أراهن أن كلمة «ناسك» لاتبدأ بحرف التاء .

وشعرت بأن وجهي قد احمر، ولكن لم يستمر قلقي أكثر من لحظة، فهو لم يقرأ خطابي، بما أنني وجدته في مكانه. ومن ناحية أخرى ، فلو أنه قرأه، لكنا تحدثنا عند عودتي! فضلا عن أنه واصل الحديث بطبيعية شديدة :

-«هو إذن بحاجة لأن يعمل بدأب ولو أنه جاد وحقق تقدماً سريعاً، فسوف نعود في عيد الميلاد، وفي عيد الصعود. وفي عيد القيامة. فلا تبكيا أمام الناس، وصافحا بعضكما، كصيادين، فأنتما بالفعل صيادان!.. إلى اللقاء يا صغيري ليلي. ولاتنس أنك تقترب أنت الآخر من شهادة الدراسة، وأن فلاحاً متعلماً يساوي اثنين أو ثلاثة من غير المتعلمين ! »

وراح بالطبع يواصل ذرف دموعه، حتى نفخ الكمساري في صفارته بنبرة آمرة، وفرقع بسوطه مرتين، ورحنا نبتعد بسرعة .

كانت الدكة الأخيرة التي تعطي ظهرها للخيل فارغة، ولأن أمي وبول يصيبهما الغثيان عندما يجلسان وظهرهما للطريق استقرت العائلة وسط الفلاحين، بينما ذهبت أنا وجلست في الخلف، وحدي .

وانفك كابح العربة. فراحت تسير بنا خبباً .

كان المطر يتساقط باستمرار.

وبينما كنت أضم رأسي! إلى كتفي ، كما لو أنني أتكور على نفسي، رحت أمضغ غصنا من النعناع، قابضا بيدي في جيبي، على فخ لم يعد له جدوى، وإنما صار شيئاً مقدساً، وذخيرة، ووعداً... وقد انتصبت بعيداً، خالدة، الكتلة الزرقاء للتاومي الحبيبة، تشرف على دائرة التلال عبر هدير المطر.. رحت أفكر في شجرة الغبيراء الملتفة على حافة مغارة سورن، وفي القطرات المتساقطة من نبع بريجيت، وفي الذبابات الثلاث الطنانة بوادي بريكاتوري... وفكرت في حصيرة السعتر بالبوندران، وفي أشجار البطم التي تعج بالطيور، وفي الحجر المغني. وفي اللافندر الناعم على حصى الأدغال...

في كل جهة من جهات الطريق الضيق، كان حائطان من الحجر الخشن، تتدلى من فوقهما النباتات المختلفة المبتلة، تتتابع بلا نهاية تحت المطر .

كانت العربة القديمة تئز، والأطر الحديدية تهرس الحصى، ووقعُ حوافر الخيل يخب على الأحجار، وجديلة السوط تفرقع بصوت مكتوم، كأنها صاروخ ناري صغير مبتل.

وحملني هذا إلى موطني وقد بكت قطرات المطر الناعمة من أجلي على وجهي. فلم أكن راحلا باتجاه هدف، بصدري وجبهتي، وكنت وحيداً، في يأس لا يقطعه شيء، فرحت على إيقاع سنابكه، أوغل في المستقبل تقهقراً، كالملكة برونيهوت، التي تجررت كثيراً على الأحجار، بشعرها الأبيض المجدول في ذيل حصان .

عدت، بلا أية بهجة للمدرسة، كانت أشجار الدلب في فنائها قد بدأت تفقد أوراقها المصفرة، التي كان الفراش يحرقها كل صباح في كومة صغيرة، أسفل حائط كبير رمادي.. وكنت أرى، عبر نافذة الفصل، بدلاً من غابات الصنوبر صفاً تعساً من أبواب دورات المياه .

كنت قد انتقلت مع بدء العام إلى الصف الرابع، بفصل الأستاذ بيسون.

كان شاباً، طويلاً ، نحيلاً، أصلع في هذه السن، ولم يكن باستطاعته ثني الأصبع السبابة بكفه اليمنى، الذي ظل دائماً معقوفاً .

وقد استقبلني بشكل طيب، ولكنه أقلقني كثيراً بقوله إن حياتي كلها معلقة على دراستي هذا العام، وإنه سيكون مضطراً لكي «يضيق عليّ الخناق»، لأنني كنت مرشحاً في مسابقة «المنح» للمدرسة الثانوية. هذه المسابقة القاسية، التى يتنافس التعليم «الابتدائي» فيها التعليم «الثانوي» .

أحسست أولا بالثقة ، لأن هذه الكلمة «ثانوي» كانت تعني بالنسبة لي شيئا من «الدرجة الثانية» وبالتالي شيئاً «سهلا» .

وتلاحظ لي بعد ذلك أن أبي وزملاءه لايشاطرونني هذا الرأي، وأن ترشيحي يعني أن آخذ كل شرف المدرسة على عاتقي.

وأخذت هيئة الأركان هذه «الزمام في يدها» بطريقة البوليس الجنائي الذي يتكالب مفتشوه على استجواب المشتبه فيه .

وكان الأستاذ بيسون، الذي يدرس لي بالفصل لست ساعات باليوم هو الذي يدير التحقيق، وتتجمع لديه كل المعلومات .

وكان عليّ أن أذهب للمدرسة صباح الخميس ، في التاسعة .

وكانت الأستاذة سوزان، المدرسة المحترمة في الفصل الأعلى، التي لها منهج تربوي لايخطئ تنتظرني بالفصل الخالي، لكي تدرس لي المسائل الإضافية، عن

القطارات التي يجب اللحاق بها، ولقاء سائقي الدراجات، والأب، الذي عمره سبعة أضعاف عمر ولده، والذي تلاشى هذا الفارق بينه وبينه مع الأعوام. وفي حوالي الحادية عشرة. كان السيد بونافي يجيء لكي يختبر «تحليلاتي المنطقية» ويعطيني المزيد منها، حتى أصير بالقطع غير قادر على المواصلة. وفي أيام الأسبوع. كان السيد آرنو (الذي واتته للحظة فكرة أن يعمل بالبريد ذات يوم) يرغمني على أن أقوم بمائة خطوة معه، أثناء الفسح، وأرتِّل معه لوائح المديرية (التي لم أذهب إليها أبداً، والتي تلاشت من ذاكرتي لحسن الحظ) .

الأكثر من هذا، أن السيد مورتيير، الذي كان ذا لحية لطيفة بيضاء، وخاتم ذهبي بأصبعه الصغير، عهد ذات مرة لتلاميذه لأبي، أثناء دروس المساء، ومن ثم أحضرني في فصله الخالي وطرح عليَّ ألف سؤال في تاريخ فرنسا، وقد شغفت بهذا العرض، باعتبار أنه كان شيئاً روايئاً به النكتة الهازلة لرولون، وقفص الحديد للكاردينال دي بالو، وحساء الغربان للعائدين من روسيا، وهذا الزِّر الفعال للحرب الذي جعلنا غيابه نخسر حرب عام ٧٠ .

وكان أبي، المكلف بالسهر على تقدمي في الإملاء يكلفني، كل صباح، قبل أن أتناول قهوتي بالحليب، بدرس في الإملاء من ست أسطر، كانت كل جملة فيه ملغمة كشاطئ يحتمل فيه نزول قوات الأعداء .

كان من أمثال هذه الدروس «السهرة التي قضاها معنا – لقد قضينا سهرة طيبة – الدركيون الذين رأيناهم، والجنود الذين شهدناهم يعبرون...» .

وكنت أعمل بشجاعة، ولكن في أغلب الأحوال كان هؤلاء الدركيون وأولئك الجنود يمرون بلا طائل، لأنني كنت أتنصت إلى صرير الصراصير، وبدلاً من الأغصان العارية لأشجار الدلب في الفناء، كنت أشاهد غروب شمس دامٍ على قمة الرأس الحمراء، والعزيز ليلي ينزل على منحدر الباروك، وهو يصفر، ويداه في جيوبه، معلقاً على رقبته عقداً من طيور الأرطلان، وعلى وسطه

حزاماً من بلابل الشعير...

كنت بالفعل حين يكون السيد بيسون، وراء طرف مسطرته الطويلة، يتتبع على الخارطة الحائطية تعرجات نهر عديم الجدوى، مع شجرة التين الكبيرة لحظيرة باتيستا التي تنبثق ببطء أمام الحائط أو أعلى كتلة الأوراق اللامعة المتدافقة لأعلى غصن ميت، وفي العمق، في نهاية العمق قندس أبيض وأسود.

عندها، كان يعصر قلبي الصغير ألم رهيف، وعندما كان الصوت البعيد يحصي أسماء الروافد، كنت أحاول أن أقدر المسافة الأبدية التي تفصلني عن عيد الميلاد.

كنت أعد الأيام، ثم الساعات، ثم صرت أقتطع وقت النوم، ومن خلال النافذة، عبر الضباب الخفيف لصباحات الشتاء ، أنظر لساعة حائط المدرسة، التي كان عقربها الكبير يتقدم بلا انتظام، وكنت أرى الدقائق الصغيرة تتساقط كنملات مفصولة الرؤوس .

في المساء، تحت المصباح، كنت أقوم بواجباتي بغير أن أنطق، ولم يعُدْ لي وقت طويل أخصصه لبول، ولقد أصبح رغم هذا شيئاً هاماً، بما أنه كان له زميل بجواره في الفصل، كان عبارة عن ينبوع علم، فقد كان يعد حاملاً لنا تقريباً كل مساء بعض المزح الغائطية، لدرجة الاختناق. ولم يكن لدينا إلا فيما ندر الوقت للحديث، اللهم إلا خلال العمليات العَائلية التي كنا فيها نحن الاثنين مسؤولين مرتين في اليوم، عما يسمى وضع الأطباق على المائدة.

كانت أمي العزيزة مصعوقة لرؤيتي منحنياً وقتاً طويلاً هكذا على واجباتي، وكانت حصص الخميس صباحاً تبدو لها كأنها اختراع بربري، فكانت تعاملني كأنني مريض يتنقّه، وتعد لي الأطعمة اللذيذة، التي كانت تسبقها للأسف ملعقة كبيرة من زيت كبد الحوت.

وتم الاستعداد لكل شيء، «وحققت نجاحاً» وأدخل تقدمي سروراً كبيراً على نفس أبي الذي بدا لي أقل إيلاماً من ذي قبل.

◊ ◊ ◊

ذات يوم عند عودتي ظهراً من المدرسة، بعد درس إضافي في قواعد النحو، وجدت بول الصغير منحنياً فوق الدرابزين، يصيح بصوت رنان على السلم :

—لقد جاءك خطاب بالبريد! وعليه طابع بوستة !

وتسلقت السلم درجتين درجتين، فكان الدرابزين يرتج ويرن في يدي كأنه «هارب» من البرونز .

كان موضوعاً على المنضدة، بالقرب من صحني، مظروف أصفر يحمل اسمي، مكتوباً عليه بحروف غير مستوية في سطر مائل .

—«أراهن، قال أبي، أنه يحمل أخباراً من صديقك ليلي!» .

ولم أستطع فتح المِظروف، فقد مزقت زواياه الأربعة واحدة وراء الأخرى، فأخذه أبي مني وفض حافته، بحد سكين، بعناية جراح .

وسقطت منه بادىء الأمر ورقة شجر ناعمة، ثم زهرة بنفسج مجففة .

وعلى ثلاثة من أوراق الكراسات المدرسية، وبخط كبير، كانت الأسطر المتموجة المحاطة ببقع الحبر، التي كتب لي فيها ليلي .

وازميلاه !

أضع يدي في الريشة لكي أقول لك إن طير السمنة لم يحضر هذا العام. لم يحضر شيء. وحتى الدارناجات رحلت، كما رحلت أنت. فلم أحصل منها على اثنين كذلك الدرراج رحلت أيضاً . فلم أعد أذهب والأمر لايهم. والأحسن أن أشتغل في المدرسة وأتعلم الإملاء أحسن أليس كذلك؟ هذه مسألة صعبة. فحتى (الطعم). لم يبق منها إلا القليل. وهي صغيرة جداً، ولم تعد الطيور ترغبها، هذا سوء بخت، وأنت محظوظ لأنك غير موجود. فهذه (موصيبة). أنا أشتاق لحضورك أنت والطيور الوفيرة، والدرراج والسمنة في عيد الميلاد. وأعرفك أنهم سرقوا مني اتناشر فخ، وخمسين سمنة على الأقل. وأنا عارف من الذي عمل هذا، فهي أحسن فخاخ. وهو هذا الأعرج من «آللو».

تذكر أني لن أنسى هذا . كما أن الجو بارد. وتوجد ريح الشمال.

كل يوم في الصيد، تبرد رجلي من الثلج. لحسن الحظ عندي شال لكني مشتاق لك. (باطيستا) مبسوط. ويصطاد ثلاثين سمنة في اليوم، أول أمس اصطاد (بالغيراء) عشرة «أورطولان» ، واتناشر سمانة ألب. وأنا رحت (بالغيراء) تحت «الراس الحمرا» كنت أريد سماع الحجر. وهذا كله أتعبني. لأنه لم يعد يغني، وإنما يبكي فقط . هذه هي الأخبار. تحياتي الحارة وإلى اللقاء يا أصدقاء. في هذا الجواب ورقة شجر لك. وبنفسجة لوالدتك. صديقك مدى الحياة. ليلي

عنواني . البراري، المتفرعة من فالنتين. فرنسا .

قضيت ثلاثة أيام أكتب لك ، كل مساء أفعل ذلك. والدتي مبسوطة، وهي تظن أنني أذاكر الواجب. في كراستي. بعد هذا قطعت الصفحات. أعرفك أن الرعد حطم صنوبرة الجاريت الكبيرة. فلم يبق منها إلا الجذع المشقق والمنزوع. أنا قلق عليك. عنواني : البراري المتفرعة من فالنتين . فرنسا . ساعي البريد اسمه فرنان. وهو يعرف كل الناس، ولايخطىء معرفة العنوان. لأنه يعرفني جيدا، أنا أيضا.

صديقك مدى الحياة . ليلي

ولم يكن سهلاً تفسير هذه الكتابة التي لم يوضحها الإملاء إلا بصعوبة. لكن أبي الخبير العظيم، توصل لحل رموزها، بعد إعادة قراءتها عدة مرات. ثم قال بعد ذلك :

-«إنه سعيد الحظ لأن أمامه أعواماً ثلاثة يستعد فيها لامتحان الشهادة!» .

ثم أضاف وهو ينظر لأمي :«هذا الطفل لديه عاطفة ، ورقة حقيقية»

واستدار نحوي أخيراً قائلاً:«احتفظ بهذا الخطاب،فسوف تفهمه فيما بعد» .

فأخذته، وطويته، ووضعته في جيبي، ولم أعلق بشيء، فقد فهمته قبل أن يفهمه هو بكثير .

◊ ◊ ◊

فى اليوم التالي، وعند خروجي من المدرسة، ذهبت إلى محل بيع السجائر، واشتريت ورقة جميلة جداً من أوراق الخطابات. كانت موشاة بالدانتيل على حافتها، ومزخرفة من أعلاها جهة اليسار بعصفور مطبوع بشكل مجعّد، يحمل في منقاره تلغرافا، وكان مظروفها سميكاً وناعماً، ومزيناً من أطرافه بزخرفة على شكل آذان الفأر.

بعد ظهر يوم الخميس، كتبت على مهل مسوّدة ردي، الذي لم أعد أذكر بعد فحواه بالضبط، ولكني أحتفظ منه بالمعنى العام .

لقد أسفت له أولا على اختفاء السُّمن، ورجوته أن يهنئ باتيستا، الذي

عرف كيف يلتقطه على الغراء رغم ندرته. وكلمته بعد ذلك عن أعمالي المدرسية، والعناية الشديدة التي كنت موضعها، وسعادة أساتذتي بي. وبعد هذا المقطع المتواضع بعض الشيء، زففت له أن عيد الميلاد لم يعد باقياً عليه سوى اثنين وثلاثين يوما، وأننا في هذا الوقت سنكون بعدنا صغاراً قادرين على الجري بالتلال، ووعدته بمذابح للسُّمّن والأرطلان. وأخيراً بعد أن نقلت له أخبار العائلة. التي بدت لي في أفضل أحوالها – رجوته أن ينقل مواساتي إلى صنوبرة «إسكاجاسي» بالجاريت، وأن يحمل عزاءاتي للحجر الحزين. وختمت ردي بتحيات الصداقة الحارة، التي لم أجرؤ أبداً على أن أقولها له في حضوره .

قرأت نثري مرتين، وأدخلت عليه عدة تصويبات تفصيلية ؛ ثم أمسكت بريشة جديدة، ونسخته، واضعاً ورقة نشاف تحت يدي، ضاغطا لساني بين أسناني ،كان خطي حسنا، وصحة الإملاء تامة، فقد راجعت بمساعدة القاموس، عدة كلمات كنت أشك بها، وفي المساء، عرضت الرسالة على أبي الذي أضاف عدة أحرف للجمع، وشطب تاء كانت بلا ضرورة، ولكنه هنأني، وأعلن أنه كان خطاباً جميلاً، مما جعل الصغير بول يطفح بالزهو .

في المساء، بسريري، قرأت رسالة ليلي، وبدت لي أخطاؤه الإملائية، مضحكة حتى أنني لم أمنع نفسي من الضحك... ولكني فهمت أن هذا القدر من الأخطاء وعدم التوفيق جاء نتيجة لساعات طويلة من المثابرة. ولمجهود صداقي هائل، عندئذ، نهضت بلا ضجة على قدمي الحافيتين، وأشعلت مصباح البترول، وأخذت خطابي الذي كتبته، وكراستي ومحبرتي، إلى طاولة المطبخ. وكانت كل العائلة نائمة، فلم أكن أسمع إلا صوت الموسيقى الخفيفة لنقاط الماء التي كانت تتساقط في حوض الزنك، فوق مغسلة الصحون .

وبدأت بأن قطعت في جذبة واحدة ثلاث ورقات من الكراسة، وعلى هذا النحو حصلت على الحواف غير المنتظمة للأوراق التي رغبت فيها. وبريشة

قديمة ، نسخت رسالتي الجميلة، لاغيا منها الجمل البلاغية التي تهكمت من كذبه الرقيق. وألغيت أيضا أثناء النقل، كل أحرف الجمع الأبوية ؛ وأضفت بضع أخطاء إملائية، تخيرتها من ضمن أخطائه، مثل «الأورطولان» و«الدرراج»، و«باطيستا» و«الغيراء»، و«الموصيبة». وفي النهاية، اعتنيت بأن أزخرف نصي ببعض الأحرف الضخمة الفظة بدون مناسبة. هذا العمل الدقيق استغرق مني ساعتين، وشعرت بأن النعاس قد تملكني.. مع ذلك، أعدت قراءة خطابه، ثم خطابي. وخيل لي أنه صار جيداً، لكنه كان ينقصه شيء بعد، لذا ، أرقت على الورقة، باستحدام مقبض ريشيتي، نقطة كبيرة من الحبر، وتركت هذه الدمعة السوداء تسقط، على توقيعي الأنيق، فأشعت فوقه كأنها الشمس .

◊ ◊ ◊

وطالت الأيام الثلاثون الباقية من فترة الشهور الدراسية الثلاثة الأولى، بسبب المطر، وريح الخريف، وبدت لي كأنها لانهاية لها، ولكن الاصطبار كان يشرف على نهايته.

ذات مساء في ديسمبر، بعد خروجي من المدرسة حيث احتجزني السيد مورتيير لمدة ربع ساعة إضافية، قضيتها معه في اختبار حول تاريخ ملوك فرنسا الكسالى — وعند دخولي غرفة الطعام خفق قلبي بشدة . كانت أمي قد كدست أغطية الصوف. في حقيبة من الكرتون، وعلى الطاولة، التي كان المصباح المعلق فوقها مشتعلاً بكل وهجه، كانت قطع بندقية أبي مفككة، ومنشورة حول طبق مليء بالزيت .

كنت أعرف أننا سنرحل بعد ستة أيام، ولكني كنت دائماً أضغط على

نفسي ألا أتخيل هذا الرحيل، حتى أحتفظ بهدوء أعصابي. وتسببت رؤيتي لهذه الاستعدادات، وهذه الأنشطة التي تعد جزءا بالفعل من الإجازة، في انفعال شديد لدرجة أن الدموع طفرت من عيني. فوضعت حقيبتي على مقعد، وهرعت وأغلقت على نفسي الحمام، لكي أبكي فيه وأضحك براحتي وخرجت بعد خمس دقائق، هادئاً بعض الشيء، لكن قلبي كان يخفق .

كان أبي يعيد تركيب أجزاء البندقية، وكانت أمي تشتغل ، ورأس بول على يديها، في قلنسوة صوفية من التريكو.

وبصوت مختنق بعض الشيء، سألت :

-«أسنرحل، حتى ولو كانت تمطر ؟

– لدينا تسع أيام إجازة! قال أبي . فحتى لو أنها تمطر، سنرحل!

– وحتى لو كانت السماء ترعد، قال بول.

– لايوجد رعد أبداً في الشتاء.

– لماذا؟

وأجاب أبي مؤكداً :

-هكذا، ولكن بالطبع، إذا كان المطر قوياً، فسوف ننتظر لليوم التالي.

– وإذا كان المطر عادياً ؟

– عندئذ، قال أبي، فسوف نرهف سمعنا، ونحث خطانا، مغمضين أعيننا، ونحن نسير تحت المطر .

بعد ظهر يوم الخميس، اصطحبتنا أمي عند الخالة روز، لنعرف ما إذا كانوا قد قر قرارهم . وأحبطنا إحباطاً شديداً ، فقد أعلنت أنها لن تستطيع «الذهاب للفيلا» بسبب ابن العم بيير، الذي احتل أهمية غير مبررة بالقطع. هذا المصاص

للرضاعة الذي بدأ يلوك أصواتاً غير واضحة، ويحاورنا كأنه يتكلم كلاماً حقيقياً ليجعلنا نعتقد بأنه قال شيئاً، وكانت الزيارة عرضاً مؤسفاً . الأكثر من هذا، أنها رفعت مشافر الحيوان الصغير، أمام أمي المنبهرة، وأرتنا على لثته حبة أرز، وأكدت لنا أنها سنّة وأنه بسبب هذه السنّة، فهي تخشى عليه البرد، والريح، والمطر، والرطوبة، وقبل كل شيء عدم وجود غاز .

وقد حاولنا معها بعض محاولات التدليل والملاطفة، ولكن بلا نتيجة. فكان علينا أن نعود للواقع، أي أن الخالة روز لن تجيء معنا .

ولكن مع ذلك، ظلت، بعض الآثار الصيدية بالعم جول، فقد أعلن أنه سوف يحضر كل صباح، على دراجته، لكي يتصيد السُّمن، وأنه سيعود قبل الليل، قالها بحمية، ولكني لاحظت جيداً أنه كان يفضل البقاء معنا. عندها، وللمرة الأولى، فهمت أن الأشخاص الكبار لايفعلون أبداً ما يعجبهم، وأنهم يلهاء .

وعند نزولي السلالم، في الظل، استخلص بول نتيجة هذه الكارثة، فقد قال، بصوت واضح : «أنا ، عندما أرزق أطفالاً، سوف أعطيهم لأحد » .

◊ ◊ ◊

صباح الجمعة ، ذهب أبي ليقوم «بنوبته» الأخيرة بالمدرسة ، التي لم يكن من تبقى فيها من التلاميذ يفعلون شيئاً سوى التسكع في فنائها الكبير. كان الجو شديد البرودة منذ بضعة أيام، فقد تحول زيت الزيتون في زجاجته الموضوعة في دولاب المطبخ إلى ما يشبه القطن، وهو ما أعطاني الفرصة لكي أشرح لبول

أن الطبيعة، في القطب الشمالي تتخذ هذا المظهر كل صباح.

لكن أمنا أحبطت مُقدماً العدوان القاتل للشتاء، فقد كيَّستنا الواحد بعد الآخر في عدة سراويل، وفانلات ، وجوارب صوفية وقمصان، وسترات خارجية، فكنا نبدو تحت «القلنسوات الصوفية» التي تغطي حتى آذاننا أشبه بصيادي الفقم .

وسرَّني جمال هذه الأطقم. ولكني اكتشفت بعد ذلك مشاكلها. فقد كان بها كم كبيرمن الأزرار، والكباسين، والمشابك والدبابيس التي تحكمها حتى أن المشكلة الكبرى، كانت في صعوبة أن يتبول المرء بغير مساعدة من أحد، وهي المشكلة التي لم يتمكن بول أبداً من حلها .

أما أختنا الصغيرة، فلم نكن نرى منها سوى أنف صغيرة حمراء تطل مما يشبه لحاف الريش المتنقل. وكانت أمي، بطاقيتها، وياقتها، وأكمامها المصنوعة من الفراء (فراء الأرانب، بالطبع)، تشبه لاعبات التزلج الجميلات الكنديات اللائي نرى صورهن على روزنامة البريد السنوية، ولأن البرد يتسبب في احمرار الوجه، كانت تبدو في أجمل صورة لها.

في الحادية عشرة، وصل جوزيف، وكان قد لبس – ليتباهى أمام زملائه – سترة صيد جديدة، أبسط من تلك التي كانت لدى العم جول، فقد كانت جيوبها أقل، ولكنها أجمل، لأنها كانت رمادية مزرقة، ذات أزرار نحاسية مزينة برأس كلب .

وبعد غداء مشبع، أعد كل منا «أكياسه».

كانت أمي قد تنبهت لأنه في القرية، وبانتهاء الصيف، فإن محل «مخبز ودخان وبقالة ومانيفاتورة ومأكولات» لن يمدنا سوى بالخبز ، والدقيق، والمستردة، والملح، وبعض الحمص، الشديد الجفاف كأنه خردق صيد، والذي

يتوجب نَقْعُه في الماء لثلاثة أيام، قبل طهوه في ماء مغبر .

لذا فقد حملنا معنا تموينا لا بأس به .

هذه الثروة (التي احتوت أصبعاً كبيراً من السجق الجاف الممتاز، بما أنه كان كامل الدسم، مغلفاً بغلاف عليه حزام ورقي مذهب) وضعت في لفائف قماشية، مطبقة من أطرافها الأربعة. كانت بها لفائف ثلاث ثقيلة، وجهزت أنا لفة رابعة، منتفخة، بالقطن، والعلب الفارغة، وكرات الورق المجعدة، على شرف بول الصغير .

ولم يكن هذا كل شيء، فإن ثروة العائلة لم تكن تسمح أبداً بأن يمتلك كل واحد منا نسختين من كل أدواته المنزلية، وكنا قد اصطحبنا معنا عند عودتنا كل هذه الأدوات من «الحصن الجديد». لذا، فقد عبأ أبي في جوال كبير على طريقة سكان التيرول، الأدوات التي لا غنى عنها، مثل الكسرولات، والمصفاة، والمقلاة، والشواية، والقمع، ومبشرة الجبن، وغلاية القهوة، وطاحونة القهوة، وحلة الضغط، والأكواب، والشوك، والملاعق، وغمر كل هذه الأشياء بكم كبير من الكستناء، لملء الفراغات، ولضمان عدم احتكاكها وخشخشتها .

ووُسِّقت هذه الشحنة على ظهر أبي، وتحركنا في اتجاه «محطة الشرق». «هذه المحطة» التي لم تكن إلا نهاية خط واقعة في نفق لأحد الترامووايات، كان اسمها نفسه عبارة عن مزحة، فالشرق المعني، لم يكن الصين، ولا آسيا الصغرى، ولاحتى مدينة طولون، فهو أوبان، حيث ينتهي بتواضع خط الشرق، تحت أشجار الدلب الغربية.مع ذلك، تركت هذه المحطة في نفسي انطباعاً قوياً، بسبب النفق، الذي كان يبدأ منها. فقد كان يمر بها في الظلمة، ترام أثري أسود مدخن بخاري، كان، بمدخنته ذات القمع، في ذلك الوقت، شأنه شأن كل شيء، آخر صيحة من صيحات التقدم. لكن التقدم الذي لايقول أبداً كلمته النهائية، قال كلمة أخيرة أخرى، هي «الترام الكهربائي».

وانتظرناه ، واقفين وراء حواجز من الأنابيب الحديدية، في صف طويل، لم يكن بمقدور الآتين الجدد فيه أن يجدوا مكانا لأنفسهم فتكربسوا.

اليوم أيضا. أتذكر جوزيف، بذقنه المدببة للأمام، وأكتافه المنجذبة للخلف بسبب حمولته التيرولية، وهو مستند كأنه قس على مكنسة ،عصاها بالأرض وليفها في الهواء .

وانبثق بعد حين من الظلمة، الترام المصلصل، معلناً عن نفسه بصرير عجلاته في المنحنيات، وتوقف أمامنا مباشرة . وفتح الباب لنا عامل يرتدي كاسكيتا، وأقلتنا العربة .

وجلست أمي في مكان مناسب بين امرأتين ثرثارتين بغير أن تبذل عناء يذكر للحصول عليه، أما نحن الرجال، فقد ظللنا واقفين على المنصة الخلفية، بسبب حجم حمولتنا. وأسند أبي جواله إلى الحاجز، وما إن أقلع الترام ، حتى راح القمع والشواية – نكاية في الكستناءات الكاتمة للصوت – يرتلان بصوت خفيض نوعاً من الصلوات الكنسية .

وأضاء النفق، فجأة بمصابيح خافتة تطل من كوى بالحائط، لم تكن توضح إلا المنحنيات والمنعطفات. وبعد ربع ساعة من الصرير والرجات، خرج من باطن الأرض.. على مدخل شارع «شاف» على بعد ثلاثمائة متر بالكاد من بداية ركوبنا.. وشرح لنا أبي كيف أن هذا العمل الفريد تم الشروع في حفره من الجهتين في آن معا، وبعد تعرجات متباطئة طويلة تحت الأرض، لم يلتق طاقما الحفر إلا بالصدفة .

كانت الرحلة في الهواء الطلق ممتعة وسريعة، وقد فوجئت تماماً عندما رأيت أبي قد استعد للنزول من الآلة، فلم أتعرف ونحن راكبون على منطقة الباراس التي سننزل بها .

في المدينة الكبيرة، كانت العلامة على الشتاء، تتلخص في دخان المدافىء، والأنوف المغطاة، ولفاعات الشتاء، وهذا الرجل المشعل للمصابيح الذي يضغط مفاتيحها في العصر، لكن الضواحي، التي صارت تشبه الرسوم الزيتية، جعلتني أرى الوجه الحقيقي للموسم .

وتحت شمس شتوية خفيفة، شاحبة ومجتزة كرأس راهب، وجدنا طريق الإجازة وكان قد اتسع كثيراً، ففي ديسمبر، أشعل عمال الطرق الليليون الأعشاب المتسلقة، وأزاحوا ما تحت الحوائط. أما تراب الصيف الناعم، هذا الدقيق المعدني الذي تحيله ركلة قدم واحدة محكمة إلى سحابة كبيرة من الغبار، فقد صار الآن متحجراً، وصارت التجاعيد المتشققة المزخرفة المتجمدة للأرض تتكسر وتتجمع في أكوام تحت خطانا، ومن أعلى الحوائط، بدت أشجار التين ناحلة مدلية أغصانها على هياكلها، وكانت أفرع ياسيمن البر تتدلى كأنها أطرا ف خيوط سوداء. ولم يكن هناك صراصير ولا جراد، ولا خنافس، كما لم يكن هناك صوت، ولا حركة، فقط أشجار الزيتون، هي التي احتفظت بكل أوراقها، ولكني رأيتها بوضوح ترتجف، ولم تكن راغبة في أي حديث .

مع ذلك، لم نكن نشعر بالبرد، بسبب ملابسنا، ووزن حمولاتنا، وكنا نسير بخطى مسرعة على هذا الطريق الجديد. وبغير أن نتوقف. تذوقنا ذلك باستمتاع، وقصر المشوار عندما بدأت أميز عالياً، مخروط قمة الرأس الحمراء واختفت الشمس فجأة، فتشكلت بالسماء طبقات قرمزية أرجوانية، ولم تحدث نتيجة لغروب مجيد منتصر، وإنما لتواريها ، الذي كان لا إراديا على الأرجح، وراء السحب الرمادية ، فخفت الضوء، وهبطت السماء القطنية، وحطت كأنها غطاء قدر على شواشي التلال، التي كنا محاطين بخليجها.

وبينما كنت أسير، فكرت في عزيزي ليلي، ترى أين هو الآن؟ فنحن لن

نكون بالفيلا قبل حلول الليل . ترى هل نقابله في الحصن الجديد، جالساً على حجر العتبة، وإلى جواره خرج مليء بطيور السُّمن؟ أم أنه الآن على الطريق قادم ليستقبلني ؟

ولم أجرؤ أبداً على الطموح في ذلك بسبب الوقت والبرد، فقد بدأت في التساقط، البطيء، مع الغروب البنفسجي، أول ندف الثلج، التي شاهدت من خلال رذاذها، التماع الشعلة الصغيرة لأول مصباح بترول، أضاء بأسفل الضفة معلناً ظهور القرية .

وفي استدارة الضوء الأصفر المرتعش على الطريق المبتل، ميزت ظلاً يرتدي قلنسوة... وجريت في اتجاهه، وجرى في اتجاهي. وتوقفت على بعد خطوتين منه.. فتوقف، هو أيضا، وكرجل، مدّ لي يده، فصافحته وضغطت يده بقوة، بغير أن أقول كلمة .

كان محمراً من السعادة والانفعال. وكنت بالقطع أكثر احمراراً منه.

—هل كنت في انتظارنا؟

– لا قال. لقد جئت لأرى دُوربك . وأشار لي على باب أخضر

—لماذا جئت إليه؟

– لقد وعدني بطعوم. فهناك الكثير منها في إحدى الصفصافات، عند حافة المرجة مباشرة.

– وهل أعطاك منها ؟

– لا فلم أجده ببيته... لذا انتظرت قليلاً لكي أعرف ما إذا كان سيرجع... وأتصور أنه ذهب إلى كاميون .

ولكن في هذه اللحظة، انفتح الباب، وخرج منه بغل صغير، كان يجر عربة

صغيرة عليها فانوس مضاء، وكان دوريك هو الذي يمسك بأعنتها، وعند مروره، صاح بنا : « سلام، طاب يومكم يا أصدقاء!»

واحمر ليلي كلية، وجرى دفعة وا حدة ناحية أمي، لكي يحمل عنها أكياسها ولم أسأل ثانية عن شيء. كنت سعيداً لأنني كنت أعرف أنه يكذب. فلقد جاء بالطبع ليستقبلني ، في عز البرد، تحت هذا المطر الناعم البارد الذي التصقت حباته اللامعة على رموشه الطويلة. كان أخي الصغير في التلال، قد نزل من البراري إلى هنا، وقد ظل منتظراً على أطراف القرية لعدة ساعات، حتى تكاثف الليل، على أمل أن تظهر، مع انعطافة الطريق اللامع، قلنسوة صديقه ذات الغطاء المدبب. ولم يكن اليوم الأول ، يوم عيد الميلاد، يوما من أيام الصيد الحقيقية، فقد كان ضرورياً مساعدة أمي في ترتيب البيت، وإحكام إغلاق النوافذ بالحشايا (فقد كانت تصفر بموسيقى صقيعية)، والإتيان من غابة الصنوبر المجاورة، بحصاد كبير من الخشب الجاف. مع ذلك بالرغم من كل هذه الواجبات، وجدنا الوقت لنصب عدة فخاخ تحت أشجار الزيتون، في وسط أعشاب «الباووكو» المتجمدة، والمبرقشة بالزيتون الأسود .

كان ليلي قد توصل لحفظ الطعوم في صندوق صغير كان يطعمها فيه أوراق النشاف، وتمكنت هذه الفخاخ المنصوبة بين الزيتون ، من استدراج اثني عشر من طيور السمنة نزلت من على الغصن إلى الأسياخ لتكمل وجبة عيد الميلاد ، التي كان موعدها في مساء اليوم نفسه، لأننا فرغنا للعشاء ا لكبير «ذي الثلاثة عشر نوعاً من الحلوى» أمام الجمر المتقد.

وكان ليلي – ضيف الشرف عندنا – يراقب كل حركاتي، ويبذل جهداً ليتصرف كالجنتلمان الذي يعتقد أنني كنته.

في أحد أركان غرفة الطعام، صنوبرة صغيرة، صارت شجرة عيد ميلاد بسبب الظروف، وقد علق على أغصانها دستة من الفخاخ الجديدة، وسكين

صيد، وعلبة بوردة، وقطار بزنبرك، وخيط من النحاس الأصفر لعمل الأنشوطات، وسكر نبات، ومسدس بفلة، أي كل أنواع الفخفخة، واتسعت حدقتا ليلي من الدهشة، ولم ينطق بكلمة، لقد كان في حالة من الانبهار المطلق.

كانت سهرة تظل في الذاكرة ، فلم أكن قد قضيت سهرة طويلة مثلها من قبل، أخذت أعلك البلح، والفواكه المجففة، والكريمة المخفوقة، وتبعني في هذا ليلي الذي استنتج حوالي منتصف الليل أنه يتنفس بلا انتظام وأنه فتح فمه لدقائق كاملة. ولثلاث مرات عرضت علينا أمي النوم ورفضناه ثلاث مرات، فقد كان ما يزال أمامنا زبيب مجفف، كنا نقرشه بغير متعة تذوق حقيقية، ولكن بسبب الفخفخة التي كان يمثلها .

حوالي الواحدة صباحا، أعلن أبي أن «هؤلاء الأطفال سينفجرون» ونهض. ولكن في هذه اللحظة بالذات، اعتقدت أنني سمعت على البعد جرس دراجة العم جول، ومع أنها كانت الساعة الواحدة صباحا والبرد يصدع الحجر، وبدا لي مجيئه أمراً متوقعا تماماً، وتصورت أنني أحلم حتى أرهفت أمي أذنها، وقالت في دهشة : «جوزيف ، هذا جول! ترى هل حدث شيء؟»

وتنصت أبي بدوره ، وكان الصرير قد اقترب.

—إنه هو، قال ولكن لاتقلقي، فلو كان قد حدث شيء، لما جاء في مثل هذه الساعة!

ونهض، وفتح الباب على مصراعيه، وظهر أمامنا خيال دب ضخم، كان يسحب حقيبة من حزامها، ودخل العم، مرتديا عباءة من الفرو ذي الشعر الطويل، أكملتها تلفيعة التفت أربع مرات حول وجهه وأنفه، ووضع لفة كبيرة على الطاولة وهو يقول :

«عيد ميلاد سعيد» وهو يفك تلفيعته .

وفتحت الكيس في التو، كان به المزيد من اللعب، والمزيد من الفخاخ، وكيس كبير من الكستناء المجلدة «المارون جلاسيه» وزجاجة مشروب روحي .

وقطب أبي حاجبيه، ثم تفحص الملصق الذي على الزجاجة، والذي كان يلتمع بعدة ألوان، وبدا عليه الاطمئنان: «هذا، قال، مشروب روحي أمين! إنه نبيذ، نعم، ولكنه نبيذ مطبوخ، أي إنهم غلوه، ونزعوا منه الكحول »

وصب مقدار أصبعين لكل واحد منا، واستمر الاحتفال، بينما حملت أمي بول النائم إلى سريره : «نحن سعداء بمجيئك، قال أبي، ولكننا لم نكن ننتظرك.....

– يا عزيزي جوزيف، قال العم، لم يكن بوسعي أن آخذهم معي لصلاة منتصف الليل، التي أواظب على حضورها منذ نعومة أظافري. ومن جهة أخرى، لم يكن منطقياً أن أعود للبيت حوالي الساعة الواحدة صباحاً، مخاطراً بإيقاظهما. لذا اخترت أن أحضر صلاة عيد الميلاد في كنيسة قرية الكرمة هنا، ثم آتي لأحتفل معكم بمولد المخلص .

ووجدت أنها كانت فكرة سعيدة، بما أنني كنت قد شرعت في فك علبة المارون جلاسيه. أمام عيني ليلي الذي لم يكن قد رآه أبداً.

– هذه الصلاة، قال العم، كانت جميلة جداً. كان بها مذود هائل، وكانت الكنيسة مفروشة بزهور إكليل الجبل، وغنى الأطفال أغاني عيد الميلاد المحببة الريفية من القرن الرابع عشر. ومن المؤسف أنكم لم تحضروا !

– أنا لم أكن لأذهب إلا على سبيل الفضول، قال أبي، وأتصور أن الناس الذين يذهبون للكنائس من أجل العروض والموسيقى لايحترمون إيمان الآخرين .

– هذا إحساس جميل، قال العم، فضلاً عن أنك سواء جئت أم لا، كنت حاضراً في الكنيسة هذا المساء. وفرك يديه في سعادة.

- وكيف كنت حاضراً؟ سأل أبي بنبرة ساخرة بعض الشيء .

- كنت أنت وكل أسرتك، لأنني صليت طويلاً من أجلكم !

وبهذا الإعلان غير المتوقع، لم يعرف جوزيف بماذا يجيب، لكن أمي ابتسمت ابتسامة صداقية جميلة بينما راح العم يفرك يديه بسرعة أكثر .

- وأي فضل تمنيته على القوي العزيز؟ قال جوزيف أخيراً.

- لقد طلبت أجمل طلب، فقد رجوته ألا يحرمكم زمناً طويلاً من حضوره، وأن يبعث فيكم الإيمان .

تحدث العم بحمية شديدة، وعيناه تلتمعان بالرقة .

كان أبي يتمضغ بمتعة بثلاث أو أربع كستناءات مرة واحدة فأخذ وقته حتى ينتهي من المضغ، ثم ازدردها دفعة واحدة، وقال بصوت محتبس بعض الشيء : «أنا لا أعتقد، وأنت تعرف هذا، بأن الخالق يتنازل ويهتم بميكروبات مثلنا، ولكن صلواتك هي دليل جميل وطيب على الصداقة التي تكنها لنا، وأنا أشكرك . »

وعند ذلك، نهض ليشد على يده، ونهض العم، أيضاً، ونظرا لبعضهما وهما يبتسمان، وقال العم : «عيد ميلاد سعيد، يا عزيزي جوزيف!»

وأمسك بكتفه بيده الضخمة، وقبله على وجنتيه .

إن الأطفال قلما يعرفون الصداقة الحقيقية. فهم ليسوا سوى «أصحاب» ، أو «متوالسين» ، يغيرون أصدقاءهم عندما يغيِّرون المدرسة، أو الفصل، أو حتى دكة الفصل. ولكني ذلك المساء، مساء عيد الميلاد، أحسست بانفعال جديد، فقد اختلجت شعلة النار، ورأيت في دخانها الخفيف، طائراً أزرق ذا رأس ذهبية يسبح على ضوئها .

عندما كان لابد في النهاية أن نذهب للنوم. كان النعاس قد طار من عيني. وكان الوقت متأخراً. فأعددت عدتي للحديث مع ليلي، لأن أمي كانت قد وضعت له مرتبة في غرفتي، ولكنه كان قد «قهره» النبيذ المطبوخ، الذي أساء تقديره أبي، فسقط في النوم بغير أن يتمكن حتى من خلع ملابسه.

وتمددت على ظهري، يداي تحت رقبتي، وعيناي مفتوحتان على وسعهما في الظلمة، واستدعيت الصور الجميلة لسهرة عيد الميلاد، المضيئة بطيبة العم جول، إلى أن اقتحمني قلق عظيم، فقد خطرت على بالي قصة الجندي ترينكيت إدوارد، التي قصها أبي ذات يوم أثناء الطعام .

كان ترينكيت هذا ، وهو ابن عم للأستاذ بيسون، يقوم في ذلك الوقت بأداء خدمته العسكرية في تاراسكون. وكان والد ترينكيت الذي كان أرمل، يحب ابنه الوحيد، ويقلق جداً لغيابه. إلى أن اكتشف ذات يوم، بفرح ، أن عقيد الفوج الذي يخدم به ابنه، لم يكن سوى أحب أصدقاء طفولته إليه... وهرع من فوره إلى ريشته، وكتب له خطاباً طويلاً، يذكره فيه بالذكريات المؤثرة، ويعهد إليه بابنه، المدلل، سلواه الوحيدة في شيخوخته.

واستدعى العقيد – وهو الصديق الوفي – ترينكيت ادوارد من الميدان لكي يرحب به، ولكن المساعد المناوب لذلك الأسبوع جاء له ليعلمه – وهو في وضع الاستعداد – أن الموصى عليه قد رحل منذ ثمانية أيام في إجازة استثنائية لكي يحضر جنازة أبيه العجوز، ويعزّي أمه الحزينة، ويحل المشكلات المعقدة للإرث مع إخوته وأخواته الأربعة .

وكاد العقيد أن يفقد صوابه، واستدعى رجال الدرك للبحث عن هذا المهرج.

ولأن تاراسكون ليست سوى مدينة صغيرة، يتحدث الناس فيها على سجيّتهم، اكتشفوا في نفس المساء وجوده في فندق الأباطرة الثلاثة، حيث كان

هو رابعهم، فقد كان في غرفة خادمة شقراء، كانت تطعمه من مؤونة المطبخ، وظهر الدَّرَكيُّون فجأة بعد أن أكل الثلث الأول من فطيرة محشوة بطير السمنة، ووضع الجندي ترينكييت إدوارد في السلاسل، لإعادته إلى المعسكر، حيث دفع به العقيد، لثلاثة أسابيع، في زنزانة ملأى بالفئران .

وهذا ما يحدث للناس الذين يوصي بهم البعض عندما لايكونون هم قد طلبوا شيئاً .

وبالتأكيد كنت أعرف أن الله ليس موجودا، ولكنني لم أكن على يقين تام من هذا. فهناك قدر كبير من الناس يذهبون للصلاة، ومنهم أناس شديدو الجدية. والعم نفسه يتحدث عن الله غالباً، ومع ذلك فالعم جول لم يكن مجنوناً.

بعد تفكير عميق، وصلت إلى نتيجة، نسبية بعض الشيء وهي أن الله، الذي هو ليس موجوداً بالنسبة لنا، موجود بالقطع بالنسبة لآخرين، شأنه في هذا شأن ملك انجلترا، الذي هو ليس موجوداً إلا للإنجليز .

ومع ذلك، فالعم جول قد تهور كثيراً عندما جذب انتباهه لنا، فهذا الرب، إذا اختبر حالتنا – وربما كان ذلك ما يفعله الآن بالفعل – لغضب غضباً شديداً بالقطع، على طريقة العقيد، وبدلاً من أن يبعث لنا بالإيمان، أخشى جداً أن يطلق علينا ثلاث أو أربع صواعق، تسقط البيت على رؤوسنا، ومع ذلك، ولأنني سمعت عبر الحاجز الشخير الهادئ والواثق للعم جول، ركنت لفكرة أن الله الذي يلهمه لن يفعل فيه بالتأكيد فعلاً كهذا، وأن بمقدوري أن أنام مستريحاً. على الأقل هذه الليلة، وهو ما فعلته في التو .

ولم نحضر الصيد في اليوم التالي، لأن الصيادين رحلا بدوننا، فقد استيقظنا

حوالي الظهيرة، وتغذينا بـ «أيجو بوليدو» أي ببعض فصوص من الثوم المغلي في الماء، وقضينا بعد ظهر كئيب، في ركن المدفأة، على حين كان الصغير بول، شأنه شأن نعاسه، قد عمل على تعنيفنا، فقد قرض ما تبقى من المارون جلاسيه، وراح يسخر منا، بأن يطلق علينا الغشّاشين، ولكن الليلة الثانية أصلحت الكارثة، وبدأ صيد الشتاء بداية حسنة .

‹› ‹› ‹›

هذه الأيام الثمانية لإجازة عيد الميلاد انصرمت كالحلم. ولكن لاشيء يعادل الاجازة الكبيرة، فقد كنا فيها كما لو أننا في بلد آخر.

في الصباح، تمام السادسة حيث يكون الليل ما زال، بعد، جاثماً، كنت أستيقظ مرتجفاً من البرد، فأنزل وأشعل مدفأة الخشب، ثم أجهز القهوة التي طحنتها في المساء، لكي لا أوقظ أمي. أثناء هذا الوقت، كان أبي يحلق ذقنه، وبعد لحظة، كنا نسمع من بعيد رنين جرس دراجة العم جول، وهو رنين منتظم موقع كجرس قطار الضواحي، وكان يدخل وقد احمرت أنفه كالفراولة، وعلى شاربه قطع ثلج صغيرة، وهو يفرك يديه بقوة لبعضهما، كما يفعل رجل شديد الرضا والسعادة.

كنا نفطر أمام النار، ونحن نتحدث بصوت خفيض .

ثم،كنا نستمع إلى عدو ليلي القادم، يخشخش على الطريق الجاف.

وكنت أصب له قدحاً كبيراً من القهوة، كان يرفضه أولاً قائلاً : «لقد شربت بالفعل» وهو ما لم يكن صحيحاً. وبعد ذلك، نتحرك نحن الأربعة قبل

بزوغ النهار.

كانت النجوم لاتحصى، في السماء القطيفية البنفسجية ولم تكن أبدا تشبه نجوم الصيف الناعمة فقد كان وميضها قاسياً، واضحاً وبارداً، وهي متبلورة من صقيع الليل... على الرأس الحمراء، التي يخمنها المرء تخمينا في شحوب الطقس، وكان نجم كبير منها يبدو معلّقاً كأنه فانوس قريب لدرجة أنه يمكنك أن تتصور أنك ترى الفضاء من خلفه. ولم تكن توجد ضجة، ولا همهمة، وفي هذا الصمت الصقيعي كانت خطواتنا ترن على الأحجار المتجمدة.

كانت طيور الدراج قد أصبحت حذرة، وكانت الحساسية الجديدة للأصداء تحميها من اقترابنا منها . ومع ذلك، اقتنص الصيادان أربعة أرانب برية، وعدداً من دجاجات الأرض، وعدداً كبيراً من الأرانب، أما فخاخنا فقد أعطتنا بانتظام عصافير السمن والقبرات بما جعل هذا الانتصار اليومي ينتهي لأن يكون شيئاً عادياً .

أثناء ذلك ازداد فرحي واعتدادي بنفسي لأنني قضيت على طائر «سقاوة» جارح كبير في حجم مظلة من بعدها الجانبي، أسقطه أبي في عمق خور لانسلوت في سحابة من الريش، على ظهره، ومخالبه في الهواء، ورآني الطائر القاتل أقبل نحوه. والتمت عيناه الصفراوان بالحقد والتهديد. وتصورت ثانية أنه هو نفس طائر «السقاوة» الذي أراد تقريباً أن يفقأ عيني، فصرعته بوحشية بضربات الحجر .

في عودتنا من الصيد عند هبوط الليل، كنا نتمدد (على بطوننا) أمام نار مدفأة الخشب الراتنجي، نلعب لعبة الضامة، والدومينو، ولعبة الأوزة – أثناء ما كان أبي يعزف الناي – وأحياناً كانت لعبة اليانصيب تجمع كل العائلة .

ابتداء من السادسة والنصف، كانت الأسياخ تدور على النار، والدهن الأحمر للسمن يسيل مليّناً قطع الخبز المُحمَّص السميكة – لعيش الريف .

كانت أيام عظيمة وجميلة، تبدو لي طويلة جداً في الصباح، لكنها ظهرت جد قصيرة عندما دقت ساعة الرحيل..

في آخر ليلة، عندما كنا نقفل الحقائب، قالت لي أمي، عندما رأتني في غاية التعاسة : «جوزيف، لابد أن نأتي هنا كل سبت.»

– عندما يمدون خط الترام، سيكون ذلك سهلاً ربما. ولكن بهذا الشكل...

– عندما يمدون خط الترام، سيكون الأطفال قد صارت لهم شوارب. انظر إليهم، فلم يحدث أن تحسنت صحتهم هكذا، وأنا أيضاً لم يحدث لي أبداً أن أكلت بلا مشاكل .

– أنا ألاحظ هذا جَيِّداً، قال أبي متفكراً، لكن الرحلة تستغرق أربع ساعات!... فنحن سنصل إلى هنا في الثامنة مساء السبت، وسيكون علينا الرحيل بعد ظهر الأحد .

– ولماذا لا نرحل صباح الاثنين ؟

– لأنه يجب عليّ أن أكون في المدرسة في تمام الثامنة، أنت تعرفين هذا جيداً .

– أنا، عندي فكرة ، قالت أمي.

– وماهي؟

– سترى . واندهش أبي. وفكر لبرهة، وقال :

– أعرف ما الذي تفكرين فيه .

– لا ، قالت أمي، أنت لا تعرف، ولكن لاتطرح عليّ مزيداً من الأسئلة. إنه سر. ولن تعرف به إلا إذا نجحت خطتي.

– حسنا، قال أبي، لننتظر حتى ذلك الحين .

ولم تكن فكرتها فكرة رديئة.

كانت تقابل في غالب الأحيان بالسوق، زوجة السيد المدير، وكانت هذه سيدة ضخمة جميلة، تضع عقداً ذهبياً، وتضع ساعة ذهبية في حزامها الحريري المغضن.

وحيتها أمي، الخجولة الرقيقة، باحتشام من بعيد، ولكنها وككل أولادها كانت قادرة على أن تفعل أي شيء، وبدأت، بأن كثفت تحياتها، واقتربت شيئاً فشيئا منها، ثم انتهت إلى لمس يد السيدة المديرة في قفص بطاطس. فما كان من هذه، التي كانت ذات قلب عطوف، إلا أن نصحتها بعدم شراء هذه الدرنات، التي قالت عنها إنها قد أكلت الصقيع، وقادتها إلى بائع آخر. وبعد يومين، كانتا تتسوقان معاً، وفي الأسبوع الذي تلا، دعتها السيدة المديرة لتشرب عندها قدحاً من الأعشاب الإنجليزية التي يسميها البعض بالشاي .

كان جوزيف يجهل كل شيء عن هذا الاقتحام، وفوجئ تماماً عندما قرأ، على لوحة الإعلانات بالمدرسة، قراراً للسيد المدير جاء فيه أن الرئيس القوي، بنزوة مفاجئة، كلّفه من الآن فصاعداً بنوبة الخميس صباحاً، ولكن بالمقابل فإن أساتذة التربية البدنية والموسيقى سيكلفون بتلاميذه صباح الاثنين، مما يجعله حراً حتى الساعة الواحدة والنصف .

ولأن الرجال لايفهمون شيئاً في حيل النساء، لم يكن له أن يفهم الحقيقة، لو لم يعلمه السيد أرنو – الذي كان يعرف دائماً كل شيء لأنه كان يعرف جيداً خادمة السيد المدير – بما جرى أثنا الفسحة. لذلك وجد نفسه في مواجهة مشكلتين، أولاهما هي هل يتوجب عليه أن يشكر رئيسه؟ وفي هذه أعلن على المائدة أنه لن يفعل ذلك، لأن هذا سيكون اعترافاً منه بأن السيد المدير قد لخبط «نظام العمل» في مدرسة عامة من أجل راحة مدرس .

ومع ذلك، قال، متحيراً، إنه ينبغي مع هذا أن يجد طريقة .

- اطمئن، لقد فكرت في ذلك، قالت أمي مبتسمة .

- ماذا ستفعلين؟

- لقد أرسلت باقة زهور جميلة للسيدة المديرة .

- أو هو! قال أبي، مندهشاً. لا أدري إن كان هذا التصرف ذا طابع ... عائلي جداً.. . أو ربما شابه الادعاء ... بالطبع، هو تصرف يبدو عليه أنه ودود... ولكني أتساءل كيف كان أثره!..

- لقد تلقته بسعادة، بل إنها قالت لي حتى إنني «حبوبة»!

وفتحت عينيه من الدهشة .

- أهل تحدثت إليها؟

- بالطبع! قالت أمي ضاحكة. لقد كنا نتسوق معاً كل يوم، وهي تناديني باسمي مباشرة «أوجستين».

عندئذ خلع أبي نظارته، وراح يفرك زجاجها بحمية بطرف المفرش، وأعادها إلى عينيه وراح ينظر إليها مشدوها، وكانت هذه هي مشكلته الثانية. وكان يجب أن تقص عليه كل شيء حسب القائمة، ابتداء من قفص البطاطس... وفي النهاية، هز رأسه في صمت، عدة مرات. ثم أمام كل العائلة، قال بتحبب واستنكار : «إن لديها عبقرية في التآمر».

‹› ‹› ‹›

بهذا الشكل، تمكنا، كل سبت تقريباً ، ابتداء من عيد ثلاثاء الرفع، «من الصعود للتلال».

كان وحل فبراير يبقبق ويتطاير تحت أقدامنا. وكانت الخضرة العالية في شهر أبريل تطل من أعالي الحيطان، وتنسج بأطراف متشابكة أقواسها فوق رؤوسنا. فكانت النزهة شديدة الجمال، ولكنها، كانت حقاً طويلة جداً.

بحمولاتنا المعتادة، ومع بعض الاستراحات القصيرة في الظل، كانت الرحلة تستغرق أربع ساعات نكون بعدها عند وصولنا أمام «الفيلا» في غاية الإنهاك، وكانت أمي خاصة، التي كانت تحمل أحياناً على ذراعيها الأخت الصغيرة النائمة، تبدو وقد استنفذت قواها... وبسبب من شحوبها، وعينيها المحتقنتين كان يحدث غالباً أن أرجع أنا من الأحراش أيام الآحاد، شاكياً من وجع الجنب، أو من صداع رهيب، فأذهب للنوم من فوري. ولكنني كنت عندما أغمض عيني، في الليل بغرفتي الصغيرة يأتي التّل العزيز إلى مخيلتي، وأحلم بأنني أنام تحت شجرة زيتون، محوطاً بعطر اللافندر البعيد ...

في يوم سبت من أبريل، حوالي الساعة الخامسة، توقفت قافلتنا المترجلة، والمتعبة، ما بين حائطين من الحجر المزخرف، وانفتح على بعد ثلاثين متراً منا باب صغير، وخرج منه رجل أغلقه وراءه بالمفتاح . وعندما اقترب منا في سيره، نظر فجأة لأبي، ثم صاح : «السيد جوزيف!»

كان يضع سترة رسمية غامقة ذات أزرار نحاسية، وكاسكيتة شبيهة بكاسكيتات رجل السكك الحديدية. وكان له شارب صغير أسود، وعينان واسعتان كستنائيتان تلتمعان من السعادة .

ونظر له أبي بدوره، ثم استغرق في الضحك وقال :

—بوزيج! ماذا تفعل هنا؟

– أنا ؟ أنا أعمل، ياسيد جوزيف، فأنا أعمل مطهر قنوات وهذا بفضلك، يمكنني أن أقول هذا! فأنت قد تعبت، لكي أنجح في شهادة الدراسة! أنا الآن مراقب قنوات منذ سبع سنين .

– مراقب؟ قال أبي. وماذا تراقب؟

– آ آ! قال بوزيج بنوع من التباهي، أخيراً جاء دوري أنا لأعلمك شيئاً! فمراقب، تعني أنني أراعي القناة...

– بعصا؟ سأل بول .

– لا! قال بوزيج وهو يغمز بعينيه بشكل غير مفهوم. بمفتاح كبير حرف T (وأرانا إياه معلقاً في حزامه)، وبهذا الكراس الصغير الأسود. فأنا أفتح وأقفل المحابس، وأراقب المنسوب... فإذا رأيت صدعاً في الجرف، أو مترسّبات، أو جسراً صغيراً قد ضعفت أساساته ، فإني أسجل هذا الأمر، وفي المساء، أكتب تقريراً عنه، وإذا رأيت كلباً يغرق، أنتشله، وإذا فاجأت البعض ممن يلقون بمائهم القذر أو يستحمون في القناة، أسائلهم وأخالفهم.

– إيه هيه! قال أبي... لقد صرت شخصية رسمية.

وغمز بوزيج مرة أخرى بعينه، وضحك ضحكة صغيرة راضية:

–والأهم من ذلك، قال أبي، انه عمل غير متعب .

– بالطبع لا! قال بوزيج، فهو ليس السجن. واختنق صوته دفعة واحدة، فما الذي سيرسل بي للسجن؟ أنا لم أرتكب خطأً أبداً، اللهم إلا في دروس الإملاء، ولكنك، يا أستاذ جوزيف، أرى أن عائلتك الصغيرة قد كبرت، وأن السيدة زوجتك لم تسمن كثيراً، ولكنها ما زالت لطيفة كما كانت دائما. ثم واضعاً يده على رأسي، سأل :

– ولكن أين أنتم ذاهبون هكذا، بكل هذه الحمولة؟

– الواقع، قال أبي، ببعض الاعتداد، نحن في طريقنا إلى منزلنا الريفي، لكي نقضي الأحد هناك.

– هو هو ! قال بوزيج طرباً. هل صرتم أثرياء؟

– ليس بالضبط، قال أبي. ولكن بالفعل قد صرت أنا الآن أدرس للصف الرابع، وعلاواتي قد زادت بشكل محسوس.

– هنيئاً لك، قال بوزيج . هذا بالفعل يسعدني. هيا، هيا، أعطوني بعض الأكياس، أحملها معكم وأصطحبكم! .

وأخذ من يدي الكيس، ذي الثلاثة كيلو جرامات من الصابون، وجرّد أخي من الخرج الذي يحتوي السكر والشعرية: « إنك طيب جداً، يا بوزيج، قال أبي.. ولكنك لا تعرف أننا ذاهبون بعيداً جداً.

– أراهن أنكم ذاهبون إلى الأكسات؟

– أبعد من ذلك.

– إذن، إلى الكامون؟

– أبعد.

وفتح بوزيج عينيه على اتساعهما: لاتقل لي إنكم ذاهبون إلى قرية الكرمة؟

– سوف نعبر بها، قال أبي، لكننا ذاهبون لأبعد منها أيضاً .

– ولكن بعد قرية الكرمة لايوجد شيء!

– بلى، قال أبي، توجد البراري!

– ياه! قال بوزيج مروعاً. إن القناة لاتمر هناك. ولن تمر هناك أبداً، فمن

أين تأتون بالماء؟

– من الصهريج، ومن الآبار.

وأزاح بوزيج كاسكيته إلى خلفية رأسه، لكي يهرش رأسه بشكل أفضل، ونظر إلينا نحن الأربعة.

– وأين غادرتم الترام؟

– في الباراس.

– أيها المساكين! وقام بحسبة عقلية سريعة :

– هذا جعلكم تقطعون على الأقل ثمانية كليو مترات على الأقدام!

– تسعة، قالت أمي .

– وهل تفعلون هذا كثيراً؟

– تقريبا كل سبت .

– أيها المساكين! كرر .

– إنها بالطبع مسافة طويلة بعض الشيء، قال أبي. لكننا عندما نصل إلى هناك، لا نأسف على هذه المشقة...

– أنا ، قال بوزيج باحتفالية، لست ممن يتحملون، المشقة، هذا حالي دائماً، ولكني عندي فكرة! اليوم لن تقطعوا الكيلو مترات التسعة. سوف تأتون معي، وسنتبع مجرى القناة، الذي يعبر في خط مستقيم كل هذه الملكيات، وسوف نكون في مسافة نصف ساعة، أسفل قرية الكرمة!

وأخرج من جيبه المفتاح اللامع، واقتادنا للباب الذي كان قد أغلقه، وفتحه «اتبعوني»، قال. ودخل ، لكن أبي توقف على العتبة: بوزيج، هل أنت متأكد

من أن هذا أمر مسموح به؟

– ماذا تريد أن تقول؟

– أنت لديك هذا المفتاح بسبب وظيفتك الرسمية، ولهذا السبب فلديك الحق في المرور على أراضي الغير. ولكن هل تعتقد أننا مسموح لنا أن نتبعك؟

– ومن الذي سيرانا ؟ قال بوزيج .

– أرأيت! قال أبي. بما أنك تأمل ألا يرانا أحد. فذلك معناه أنك تعترف بأن هذا فيه خطأ .

– ولكن أي أذى نحدثه؟ قال بوزيج. فأنا قد قابلت معلمي، وأتفاخر بأن أريه المكان الذي أعمل فيه.

– هذا قد يكلفك الكثير. إذا عرف به رؤساؤك...

وغمر بوزيج بعينه مرتين أو ثلاث، بشكل غامض. ثم هز كتفه مرتين، وهز رأسه، ضاحكاً ضحكة صغيرة هازئة، ثم قال :

– بما أنني يجب أن أقول لك كل شيء، فسوف أعلمك بشيء مهم. فلو أنه حدث أي حادث ولو بسيط، سوف آخذ على عاتقي ضبط الأمور، لأن أختي على علاقة (عرفية) بمستشار عام بالمحافظة. هذه الجملة بدت لي أولاً مبهمة، فقد تخيلت فجأة أخته خارجة من البلدية متأبطة ذراع موظف عال يرتدي بزة رسمية، وأنه يعطيها نصائح ثمينة ولأن أبي كان ما زال يبدو عليه التردد، أضاف بوزيج : «إضافة لهذا، فإنها هي التي سعت في تعيين بيستانج، مساعد مدير القناة، ولو نقدني بيستانج أقل نقد، فسوف تفقده صوابه بضربة لايعرف من أين جاءت».

وتملكني في التو إعجاب كبير بهذه السيدة الشجاعة القادرة على أن تضرب أعداء أخيها بغير أن تسيل دمهم. وقد شاركني أبي بالقطع هذا الشعور،

فقد سرنا وراء بوزيج على أراضي الغير .

◊ ◊ ◊

كانت القناة تتفرع من حوض ترابي عال صغير، قائم بين سياجين من الشجيرات والأشجار النامية فوق حرش من إكليل الجبل، واليِنسون، والمذنبات وياسمين البر.

وشرح لنا بوزيج أن هذه النباتات البرية ثمينة جداً، لأنها جزء من أراضي الحوض، وأنه ممنوع على الملاك أن يلمسوها.

كانت القناة مبطنة بالأسمنت بعرض ثلاثة أمتار، وكان تنعكس على صفحة مائها سحب إبريل البيضاء . ومشينا، فيما بين الجرف والحوض المزهر، في خط هندي ، عبر ممر ضيق.

– هذه قناتي، قال بوزيج، فما رأيكم؟

– إنها جميلة جدا، قال أبي .

– نعم هي جميلة، ولكنها بدأت تشيخ... انظر إلى هذه الجروف... إنها مصدعة من أعلى لأسفل... وهذا يفقدنا كثيراً من الماء، لأن الصدوع تجعلها كالمصفاة .

وأثرت هذه الكلمة جداً في أخي بول الذي راح يرددها عدة مرات .

وعند وصولنا إلى جسر صغير، قال بوزيج بزهو: «هذا تم ترميمه في العام الماضي. لقد قمت أنا بهذا، وتم صبه بالأسمنت البحري ».

وتفحص أبي الحرف، الذي بدا كأنه جديد: «هناك شقوق به في كل مكان» قال. وبدا على بوزيج القلق فجأة، فانحنى ينظر للماء: «أين هي؟»

وأراه أبي خطاً دقيقاً رمادياً، خدشه بظفره. فتفككت قشور في يده ؛ هرسها بين أصابعه وتفحصها برهة .

– هذا ليس أسمنتاً بحرياً، قال . كذلك فنسبة الرمل بالخلطة عالية.

وفتح بوزيج عينيه المستديرتين: ماذا؟ قال. هل أنت متأكد؟

– بالتأكيد. فأبي كان يعمل بالبناء. لذا أنا أعرف الكثير في هذا المجال.

– أو هو! قال بوزيج، سوف أكتب ذلك في تقريري، وسوف نحقق في الأمر مع المقاول الذي قام به .

– لو لم ترمّ هذا الصدع، فلن يمضي شهر إلا ويكون باتساع أربعة أصابع...

– سيكون مصفاة ! صاح بول .

– سأتابع هذا الأمر، قال بوزيج .

ونزع كسرة من الملاط، لفها في ورقة من أوراق دفتره، وواصل السير. وعبرنا بأربع ملكيات ضخمة. كان بالأولى بستان زهور منسّق يحيط بقصر ذي أبراج وتمتد حول رياضه الأعناب والحدائق .

– هذا قصر أحد النبلاء، قال بوزيج، وهو بالقطع مريض، لأنني لا أراه أبداً.

– لو أن هذا الأرستقراطي لقينا في أرضه فسوف يحزنه ذلك جداً، قال أبي ثم تابع، أنا لا أحب النبلاء كثيراً .

فعلى الرغم من أن قراءاته التي قرأها بمدرسة المعلمين، كان بها بعض

الأرستقراطيين قد غفر لهم، مثل «دي جيسلان» و«بايارد» و«تور أوفرن» و«فارس داساس»، ومن قبلهم «هنري الرابع». لأنه ركض على أربع ليدخل السرور على أطفاله، ظلت دروس مدرسة المعلمين بالنسبة له غير كافية. فقد خلص بشكل عام، إلى أن «النبلاء» بشرٌ سفهاء ومتوحشون، وهو الأمر الذي كان ثابتاً له بفعل أنهم قد قطعت رؤوسهم. فلا يحظى سوء الطالع بثقة الناس أبداً، والرعب من المذابح الكبرى يمسخ حتى الضحايا .

– إنه كونت، قال بوزيج، وهم لايقولون شيئاً ضده بالمديرية .

– ربما لأنهم لايعرفونه، قال أبي، فلا بد أن بعض الشرطيين من أتباعه.

– إن لديه مزارع وحارس المزارع عجوز، والحارس ليس شابا. وهو رجل عملاق. فقد التقيت به عدة مرات، ولكنه لم يبادرني الحديث،. فقط مجرد صباح الخير، أو مساء الخير .

ووصلنا بلا أي حادث أمام الباب الثاني. كانت القناة عنده تعبر حائط السور تحت قبو منخفض، تدلت فوقه الحشائش الطويلة حتى مست الماء، وفتحه بوزيج بالمفتاح فدلفنا إلى غابة سرية.

– هنا قصر الجميلة في الغابة النائمة ، قال، فشبابيكه مغلقة دائماً، ولم يصادفني فيه أبداً أحد، فيمكنكم الغناء، والصياح، إذ لايوجد به أي خطر.

كانت غابة من الشجيرات وأشجار البطم قد غزت الحقول المهملة. وبدت حديقة من الصنوبر العجوز ، تحيط بمبنى هائل، مربع، قد اتخذ شكلاً منيعاً، لأن الوزال الصنوبري (أرجيلا التلال) نما حوله في صفوف متقاربة تحت الأشجار الضخمة.. وارتبك أخي بول من فكرة أن جميلة الغابة النائمة وراء هذه النوافذ المغلقة، وأننا، بفضل بوزيج، كنا الوحيدين الذين عرفوا ذلك.

ثم كان هناك سور آخر، وباب آخر، وعبرنا أرض قصر ثالث.

– هذا القصر، قصر الموثّق، قال . انظروا : فهو دائماً مغلق، فيما عدا شهر أغسطس، ولا يوجد هنا سوى عائلة من الفلاحين. أقابل غالباً جدهم، فهو الذي يقوم برعاية أشجار البرقوق الجميلة هذه. وهو أصم كإصيص الزرع، ولكنه طيب جداً... وهو يحدثني دائماً عن حرب عام سبعين، التي شارك فيها مع الذين راحوا يستعيدون الألزاس واللورين .

– إنه فرنسي طيب، قال أبي .

– من جهة ذلك نعم، قال بوزيج، ومن الخسارة أن يكون إنساناً متساهلاً.

ولم نقابل أحداً، لكننا رأينا من بعيد، عبر السياج، النصف الأسفل والخلفي لفلاح كان يعزق حقلاً من الطماطم .

ثم فتح بوزيج باباً آخر، كان محفوراً في حائط من حجارة مقطعة، بارتفاع أربعة أمتار على الأقل، وكان هذا الحائط مزخرفاً بشرائط قماشية. تعطي فكرة عن سخاء صاحب القصر .

– هذا القصر، قال بوزيج، هو الأكبر والأجمل، لكن صاحبه يقطن باريس، ولايوجد به أي إنسان، سوى الحارس... الذي يقيم ويراقب! .

وعبر السياج، رأينا برجين عاليين يحصنان من الجانبين واجهة القصر بارتفاع عشرة أدوار على الأقل. وكانت كل النوافذ مغلقة، فيما عدا نوافذ بعض السقائف، تحت مسطحه الإردوازي.

– هناك فوق ، قال بوزيج ، شقة الحارس... التي يراقب منها المغيرين الذين يأتون من وقت لآخر ليسحقوا البستان ...

– وربما كان يراقبنا منها في هذه اللحظة .

– لا أعتقد فهو يراقب البستان في الأساس، وهذا في الناحية الأخرى .

– أهو الآخر صديقك؟

– ليس بالضبط. فهو صول قديم.

– هؤلاء الصولات ليسوا دائماً نماذج طيبة.

– هذا مثله مثل الآخرين. لكنه دائماً «سكران طينة» وله ساق خشبية، ولو حدث ورآنا – وهذا أمر غير وارد – ما عليك إلا أن تمسك بعكازه، ولن يستطيع أبدا اللحاق بك، حتى لو معه كلبه!

وسألته أمي ، بقلق : هل لديه كلب؟

– نعم، قال بوزيج، كلب ضخم، ولكنه عجوز، عمره على الأقل عشرون سنة، وأعور وهو يتحرك بالكاد، كما أن صاحبه في العادة يربطه بسلسلة في يده. وأنا أؤكد لكم أنه لايوجد أي خطر، ولكن لمزيد من اطمئنانكم، سأذهب لأستطلع الأمر، انتظروني خلف هذا الحرش .

وكانت هناك فتحة كبيرة بالسياج. وتقدم بوزيج، بخطوة متروية، ثم توقف في منتصف الطريق الخطر... وأزاح كاسكيتته إلى الوراء، ووضع يديه في جيوبه، ثم راح ينظر طويلاً باتجاه القصر، ثم باتجاه البستان .

وانتظرنا، متكومين كالخراف، وراء المدخل. كانت أمي شاحبة، تلهث، وتوقف أخي بول عن قرش السكر الذي كان يختلسه من الكيس الذي يحمله. وكان أبي يمد وجهه للأمام، ينظرمن خلال الأغصان .

وأخيراً ، قال بوزيج :

–«الطريق خال، تعالوا، ولكن اخفضوا رؤوسكم، أثناء السير، أضاف»

وانحنى أبي على جذعه وكانت الأكياس التي يحملها تحتك بالأرض، وهو

يتقدمنا، وتقوس أخي بول أثناء سيره كعجوز القرية، واختفى تماماً في العشب ومررت بدوري ، محتضنا كيس الشعرية إلى صدري بشكل أفقي، وأخيراً تقدمت أمي،غير المتعودة على التمارين الرياضية يساراً، حانية رأسها، وأكتافها، كالمتربصة على سطح بيت. وبرغم تنورتها وقميصها الداخلي المنتفخ، كانت شديدة النحول... وكان علينا أن نكرر هذه المناورة، مرتين أخريين. حتى وصلنا في النهاية إلى حائط حاجز. وفتح بوزيج باباً صغيراً، خرجنا منه فجأة أمام مقهى ميدان الفصول الأربعة .

وكانت مفاجأة بديعة وسارة .

هذا غير ممكن! قالت أمي، بابتهاج .

– ومع ذلك حدث! قال بوزيج، فقد اخترقنا كل تعاريج الطريق.

وأخرج أبي من جيب صدريته ساعته الفضية: «لقد قطعنا في أربع وعشرين دقيقة مسافة كانت تأخذ منا في العادة ساعتين وخمسا وأربعين دقيقة.

– لقد قلت لك هذا! صاح بوزيج. هذا المفتاح أسرع من الأوتوموبيل.

وفكرت في أنه كان يغالي في الأمر بعض الشيء، لأنني كنت قد رأيت في جريدة، أسفل صورة سيارة ماركة بانهارد، هذه الجملة العجيبة «السيارة التي تقطع كيلو مترا في الدقيقة» .

–لقد قلت لك، كرر بوزيج. هذا الطريق أسهل ! أما الآن، أضاف، فهيا نشرب قدحاً !

وتقدم بجسارة إلى شرفة المقهى الصغير، الذي كانت أشجار الدلب تدلي عليه أوراقها الجديدة . وجاء صاحب المقهى الذي كان رجلاً ضخماً وقوياً، وله شارب كثيف أحمر، وأجلسنا حول طاولة من الحديد. وأحضر زجاجة من النبيذ الأبيض أمام أعيننا المشدوهة؟

– « ياسيد ، قال أبي لصاحب المقهى، هل لديك بعض الماء المعدني؟ »

ونظر إليه صاحب المقهى حائرا، للحظة ثم قال :

– إذا كنت مصراً، فلدي منها في المخزن .

– أوهو! قال بوزيج بقلق شديد، هل تشكو من كبدك ؟

– لا ، قال أبي . ولكنني أفضل أن أمزج النبيذ الأبيض بالمياه الغازية، فهذا يحوله إلى نوع من الشمبانيا التي لها طعم مستساغ .

وأعجبت بهذا الاختراع العبقري، الذي سمح بتقليل نسبة الكحول في الشراب بمزجه بماء صحي نشتريه من الصيدليات. لكن بوزيج شرب واحداً وراء الآخر، كأسين كبيرين من النبيذ الأبيض الخالص، بغير أن يبدو عليه أي قلق، مع هذا، عبرت أمي ثانية عن دهشتها من قصر الطريق .

–حسنا، ياسيدتي، قال بوزيج بابتسامة عريضة، اسمحي لي بأن أقدم لك هدية» . ومع غمزة عين ماكرة، سحب من جيبه المفتاح الفضي .

– هو لك يا سيدتي، إني أعطيه لك .

– وماذا نفعل به ؟ سأل أبي .

– لكي توفروا على أنفسكم ساعتين كل سبت، وساعتين أخريين صباح الاثنين، هو لكم فلدي مفتاح آخر.

وأظهر مفتاحاً ثانياً. لكن أبي هز رأسه يساراً ويميناً ببطء ولثلاث مرات متوالية.

– « لا ، قال، لا هذا غير ممكن» .

ووضعت أمي المفتاح على الطاولة .

– لماذا؟ قال بوزيج .

– لأنني موظف، أنا أيضا، وأتخيل الآن وجه السيد مفتش الأكاديمية إذا قيل له إن واحداً من مرؤوسيه من المعلمين، استخدم مفتاحاً مقلداً، وراح يتنزه بشكل غير قانوني على أراضي الغير !

– لكن هذا المفتاح ليس مقلداً! فهو مفتاح رسمي من مفاتيح الإدارة !

– هذا سبب أنكى! قال أبي، فأنت ليس لديك الحق في أن تعطيه لأحد». وتوتر بوزيج : ولكن لن يكلمك أحد أبداً! فقد رأيت كيف مر الأمر؟

– نحن لم يكلمنا أحد ، لأننا لم يقابلنا أحد. لكنك قلت بنفسك عند عبورنا بقصر الجميلة في الغابة النائمة «هنا لايوجد خطر بالمرة» وهذا يعني إذن أنه يوجد خطر في الملكيات الأخرى .

– ولكن ، أيها الرجل المقدس، صاح بوزيج، عندما قلت «خطر» لم يكن هذا يعني «كارثة» بل كان يعنى أنه ربما، بسوء طالع نادر، قد يمر شخص مؤذٍ على القناة، ولكن ذلك الشيء لن تكون له نتيجة متفاقمة، لأن أختي موجودة!، لاتنس أن أختي لها نفوذ! .

– أنا لا أشك أبدا في قيمة ولا في نفوذ أختك، حتى لو كان لي للأسف أن أعرف أنها تعمل بمهنة شديدة التعاسة. لكنني لي مبادئ.

– آي آي! قال بوزيج. المبادئ ، آي آي!

ثم، وبنبرة الشخص الكبير الذي يتحدث إلى طفل !

– هيا، قل لنا، ياسيد جوزيف، ماهي هذه المبادئ؟

– سوف أشعر بالخجل إذا ما تطفلت سراً على الآخرين، ولهدف ذاتي خالص لصالحي الشخصي ؛ ويبدو لي أن هذا أمر لايتفق ومكانة مدرس في

مدرسة يعلم الأطفال الأخلاق... فإذا ما رأى هذا (ووضع يده على كتفي)، إذا ما رأى هذا أباه يتسحب على طول الأحراش، كاللصوص المتسللين، ففيم تراه سيفكر؟

– سأفكر، قلت، في أن هذا الطريق أقصر .

– ومعك حق، قال بوزيج .

– لكن يا بابا ، قالت أمي، أنا أعرف الكثيرين الذين لن يترددوا أبداً في هذا ، فساعتان يوفرونهما مساء السبت، وساعتان صباح الخميس، تساوي أربع ساعات.

– أنا أفضل أن أمشي أربع ساعات زيادة، وأن أحافظ على مبدأ احترامي لنفسي .

– هذا شيء في منتهى القسوة، قال بوزيج، مقطباً، أن نرغم الأطفال على السير كما لو أنهم متطوعون بالجيش، وعلى ظهورهم أمتعة في براذع مخيفة، وهم ذوو سيقان في رفع المكرونة... كما أن السيدة ليست بدينة هي الأخرى .

– المشي، هو الرياضة الأكثر صحية بين الرياضات .

– وربما كان هو الرياضة الأكثر إرهاقاً. قالت أمي وهي تتنهد .

– اسمع ، قال بوزيج فجأة. لدي فكرة أخرى تحل كل شيء، سوف أعطي لك كاسكيتة من كاسكيتاتي، وستسير في المقدمة، ولو رآك أحد من بعيد، فما عليك إلا أن تحييه بيدك فحسب، ولن يسألك أحد عن شيء!

– بالتأكيد ، قال أبي مستنكراً، إن لديك عقلية اغتصابية للقانون ! كاسكيتة موظف بالقناة على رأس مدرس! ألا تعرف أن ذلك قد ينتهي بي إلى السجن؟

– وأختي؟ لقد نسيت ثانية أختي!

– سوف تحسن صنعاً، قال أبي، إذا قللت الحديث في هذا الشأن، أنا أشكرك على عرضك، الذي يؤكد لي على عرفانك وصداقتك، ولكني أجدني مضطراً لرفضه، فلا تلح عليّ !

– يا للأسف. قال بوزيج، ويا للخسارة...

وصب لنفسه قدحاً كبيراً من النبيذ الأبيض، وتابع القول، بنبرة آسفة :

– هذه خسارة للصغار وللسيدة. وخسارة لي، لأنني إعتقدت أنني أرد لك الجميل. وقبل كل شيء.. نعم قبل كل شيء، خسارة كبيرة للقناة.

– للقناة ؟ ماذا تريد أن تقول؟

– أجل ! صاح بوزيج. ألم تحسب حساب أهمية ما قلته لي حول الأسمنت البحري؟

– فعلاً، قالت أمي، التي اتخذت فجأة هيئة التقني، جوزيف، ألا تحسب حساب ذلك؟

– أنت لاتعرف ، قال بوزيج بحمية، أن هذا المقاول، الذي ضاعف كمية الرمل، سوف يرغم على أن يرد لنا على الأقل ألفي فرنك، أو ربما ألفاً وخمسمائة؟ لأنني سوف أقوم بكتابة تقريري، وهذا الغشاش سيضبط . فبفضل من هذا؟ إنه بفضلك.

– لقد قلت هذا اعتباطاً، قال أبي... ولكني لم أكن متأكداً تماماً...

– بل نعم، بل نعم! أنت متأكد! فضلاً عن أن ذلك سيتم التيقن منه في المعمل. كما أنك لم تمر سوى مرة واحدة، ولم تر بشكل طيب، لأنك كنت قلقاً، ولكنك ستمر بعد ذلك مرتين في الأسبوع. فياله من أمر!

وأعاد هذه الـ «ياله من أمر!» بحماس حالم .

– خلاصة الأمر، قال أبي، متفكراً، هل أنت تفترض أن تعاوني غير المعلن – والمجاني – يدفع ، بمعنى ما، ثمن عبورنا؟

– عشرة أضعاف، مائة ضعف، ألف ضعف! قال بوزيج، وأنا، أضاف، إذا أمددتني، كل يوم اثنين بملاحظة صغيرة، أو بتقرير صغير، سوف أنسخه في التو مضيفاً بضع أخطاء إملائية، بالطبع، وسوف أقوم بتقديمه لرؤسائي! فهل تقدر هذا الصنيع الذي تقوم به من أجلي؟ فبدفعة منك ، ودفعة من أختي، أصبح رئيس قسم!

– جوزيف! قالت أمي، قبل أن ترفض، عليك أن تفكر في الأمر .

– هذا ما سأفعله.

– وشرب جرعة كبيرة من مخلوط النبيذ بالماء المعدني .

– إنها مصفاة! قال بول .

– إذا تمكنا من الوصول للفيلا قبل السابعة، قالت أمي، سيكون هذا رائعاً بالفعل.. . كما أنه سيوفر لنا الكثير في أحذية الأطفال!

– آه الأحذية، قال بوزيج. أنا أيضا، عندي ولدان، وأعرف كم تكلف الأحذية...

وحلّ صمت طويل .

– إنه من الطبيعي، قال أبي، أنني، لو تمكنت من خدمة المجتمع، حتى ولو بطريقة غير نظامية بعض الشيء.. وتمكنت في نفس الوقت من مساعدتك...

– مساعدتي! صاح بوزيج. إن هذا العون سيمكنني من تغيير كل مساري الوظيفي!

– أنا لست متأكداً، ولكن خلاصة الأمر، سأفكر في الموضوع.

وأخذ المفتاح ونظر إليه لحظة. ثم قال أخيراً :

– لست أعرف بعد ما إذا كنت سأستعمله... سنرى هذا في الأسبوع المقبل...

ولكنه وضع المفتاح في جيبه .

‹› ‹› ‹›

صباح الاثنين، عند عودتنا للمدينة، رفض أبي استعمال المفتاح السحري، الذي نظر له لحظة، وهو يلتمع في باطن يده. ثم وضعه في جيبه ، وهو يقول :

–«من ناحية ، نحن في العودة ننزل، وهذا أسهل كثيراً من الطلوع، ومن ناحية أخرى، لا شيء لدينا يستحق العجلة، فلا داعي للمجازفة هذا الصباح» .

لذا نزلنا عبر الطريق الاعتيادي، ولكنه في ذات المساء، عند الخروج من المدرسة، اختفى نصف ساعة، وعن عودته، كان يحمل تحت إبطة ثلاثة أو أربعة كتب، فلا أستطيع ذكر عددها بالضبط، لأنها كانت كمية كثيفة من الأوراق المطبوعة، ذات الأطراف الصفراء، التي احمـــرت بالقـــدم كزكشات سروال جدتي:«سنطّلع على الوثائق، قال»

كانت هذه الأجزاء، بالفعل، أجزاء غير كاملة لأعمال عديدة تعالج موضوعات، «القنوات والترع» ، و«ري الأراضي غير المزروعة» و«أعمال التلييس المانعة للتسرب» من تلك الكتب التي تعود إلى عهد السيد دي فوبان ماريشال

فرنسا والمهندس العسكري الشهير .

– في هذه الكتب القديمة، قال لي، يجد المرء أتم المعاني، والسبل المجربة.

وفرد على الطاولة هذه الحطام المحترمة وشرع لتوه في العمل .

في السبت التالي، تمام الخامسة، كنا أمام الباب الأول. ففتحه أبي بيد ثابتة، فقد كان مطمئناً بمعرفته، بما أنه لم يتجاوز قط هذا المحظور من أجل تقصير طريق طويل، وإنما من أجل الدفاع ضد خراب القناة الثمينة، وإنقاذ مرسيليا من الجفاف، الذي يجر وراءه بالقطع الطاعون والكوليرا الوبائية .

مع ذلك، كان يخشى الحراس، ولذا حمل عني أكياسي، وعهد لي بدور الاستطلاع.

كنت أسير في المقدمة، بطرف السياج، محتمياً قدر الطاقة بالأشجار، وكنت أقطع حوالي العشرين متراً، فاتحا عيني، ومرهفا أذني، ثم كنت أقف، وأتنصت في الصمت.. ثم أقوم أخيراً بالإشارة لأمي ولأخي اللذين يكونان في حمى حرش كبير. فكانا يتبعانني مسرعين، ثم يتكوران خلفي، ثم كان أبي يظهر، بدفتر في يده، وكان يجب دائماً أن ننتظر للحظة، لأنه كان يأخذ بجدية شديدة ملاحظاته .

ولم نكن نقابل أحداً، والحادث الوحيد المزعج تسبب فيه أخي بول .

كانت أمي قد لاحظت أنه يضع يده اليمنى وراء سترته المشمعة، بطريقة نابليون : «هل تؤلمك يدك؟» قالت له بصوت خفيض.

وبغير أن يفتح فمه، وبغير أن ينظر إليها، هز رأسه لها أن لا.

– «أرني يدك» قالت ثانية .

وأطاعها، ورأينا أصابعه الصغيرة قابضة بشدة على مقبض سكين حادة كان

قد سرقها من درج المطبخ.

– هذه للحراسة، قال ببرود، فإذا جاء أحد ليخنق أبي، سأظهر أنا من ورائه، وأقتله من أفخاذه.

وهنأته أمي على شجاعته، ثم أضافت :

– إنك ما زلت– بعد– صغيراً، أعطها لي.

ورد سلاحه بوداعة، مع توصية أريبة :

–«أنت طويلة، شُكيه في عينيه بها»

كان حارس القصر الأخير، هو مصدر رعبنا، فكنا نعبر أراضيه ونحن نرتجف، لحسن الحظ لم يظهر لنا ، وبعد ساعتين على المائدة المستديرة، كنا نبارك اسم بوزيج مائة مرة .

على المائدة، لم نتحدث لا عن الحارس ولا عن الكلب ؛ ولكننا عندما ذهبنا للنوم في غرفتنا الصغيرة، تحادثت طويلاً مع بول. فدرسنا عدة طرق للقضاء على العدو، بالأنشوطة، ثم بخندق تبرز منه عشر سكاكين حادة جداً، أطرافها مشرعة، وأيضاً بالأنشوطة المصنوعة من سلك من الصلب، وبالسيجار المعبأ بالبارود، وكان بول الذي بدأ يقرأ روايات المغامرات، لديه فكرة متوحشة لتسميم أسهم من البوص بإيلاجها – من شق – في مقابر القرية وعندما اعترضت على عدم نجاعة وفعالية هذا الأسلوب، تعلل بالهنود البرازيليين الذين يحافظون على جثة جدهم خلال عدة شهور، لكي يسمموا أطراف أسلحتهم بإعاصتها بمزيج من أسن السلف .

ونمت وأنا أستمع إليه، ورأيت في حلم متألق، حارس القصرالأخير، ورأسه تتناثر أشلاء بسبب انفجار السيجار، وقد رشقته الأسهم فصار كالقنفذ، يتلوى بشكل بشع بتأثير السم ثم يسقط في النهاية، في قلب حفرة وقد احترقت

جسده السكاكين الستة، بينما بول يرقص كالمصروع، يغني بوحشية :

«إنه مصفاة.. إنه مصفاة!»

صار بوسعنا الآن الذهاب إلى «التلال» كل أيام السبت، بغير إرهاق كثير، وتبدّلت حياتنا. عاد لأمي لون ماء الحياة في وجهها ؛ وكبر بول دفعة واحدة، كأنه العفريت الذي يخرج من العلبة، أما أنا، فقد نمت لي عضلات بشكل ظاهر، على صدري الذي اتسع، فكنت أقيس أغلب الأحيان محيط عضلاته بمتر من القماش المشمع وكنت حين أنفخه يقع ذلك موقع الإعجاب في نفس بول .

أما أبي، فقد صار يغني كل صباح، وهو يحلق ذقنه بشفرة حلاقة تشبه نوعا من السيوف، أمام مرآة صغيرة مكسورة كان يعلقها على أكرة النافذة .

كان يغني أولا بصوت جهوري أجش :

لو أنني كنت ثعباناً صغيراً

فستكون سعادتي لانظير لها...

أو ينتقل مرة واحدة للغناء بصوت قرار بديع :

تذكر الماضي، عندما حملت إليك الملائكة

سعادتك تحت أجنحتها

عندما جئت لمعبدهم، وأنت تصدح بالتشكرات

التي تتقرب من الرب ...

كان يدندن على السلم وفي بعض الأحيان في الشارع.

لكن هذه الروح المرحة، التي كانت تستمر طول الأسبوع. كانت تختفي فيه عند فجر يوم السبت، لأنه كان منذ استيقاظه، يستجمع كل شجاعته لكي

يواجه العمل غير القانوني .

◊ ◊ ◊

حادثان كان لهما أهمية كبرى، طبعا هذه المرحلة.

ذات يوم سبت من شهر مايو، عندما صارت النهارات طويلة، وبدت أشجار اللوز كأنها محملة بالجليد، وكنا نعبر – بدون أدنى ضجة الأراضي «النبيلة»، وعندما وصلنا إلى منتصف الملكية الأولى، تضاعفت خشيتنا، لأن السياج المحيط بها صار أكثر كثافة.

كنت أسير في المقدمة، بخطوة خفيفة، رغم وزن ماء الكلور، وصابون الغسيل، والمقعد الخشبي المفكك، المربوط بحبل الذي كنت أحمله .

وتحركت بقع الشمس على المياه الساكنة للقناة. وكان بول، يسير على آثار خطاي. ولكن فجأة تجمدت في مكاني وقلبي يخفق بشدة. كان بعد عشرين مترا أمامي ظل عال قد خرج لتوه من السياج، وانزرع بخطوة واحدة في منتصف الممر .

وانتظر الرجل مقدمنا. كان ضخماً، وكانت له ذقن بيضاء. وكان يرتدي قبعة فارس، وسترة طويلة رمادية من المخمل، ويتكئ على عصا.

وسمعت أبي يقول، بصوت واضح :«لاتخف! تقدم» وتقدمت بشجاعة. وباقترابي من الخطر، رأيت وجه الرجل المجهول.كانت ندبة كبيرة حمراء، تظهر على صدغه من أسفل قبعته وتنزل لتختفي في ذقنه، مارة في طريقها بزاوية عينه

اليمنى التي كانت حدقتها المغمضة مفلطحة. وأثر فيّ هذا القناع تأثيراً قوياً حتى أنني توقفت عن السير، فعبر أبي أمامي . وخلع قبعته وأمسكها بيد، ودفتر ملاحظاته في اليد الأخرى .

«صباح الخير يا سيد» ، قال .

- صباح الخير، قال الرجل المجهول، بصوت أجش : «أنا في انتظاركم» .

عندها. صدر عن أمي ما يشبه الصرخة المكتومة، ورحت أنظر إليه، وازداد اضطرابي عندما اكتشفت حارساً ذا أزرار ذهبية، واقفاً عند السياج. كان أطول من سيده، وكان وجهه الضخم مزيناً بشاربين أصهبين، أحدهما تحت أنفه، والثاني فوق عينيه الزرقاوين المحاطتين برموش حمراء .

كان يقف على مسافة ثلاث خطوات، من صاحب الوجه ذي الندبة ينظر إلينا بابتسامة غامضة شبه متوحشة .

-هل أقول ياسيدي، قال أبي، إن لي الشرف الآن لأن أكون في حضرة صاحب القصر؟

- إنني هو في الواقع، قال المجهول، ومنذ عدة أسابيع، أراقب من بعيد تحرككم كل سبت، برغم كل الاحتياطات التي اتخذتموها لكي تتخفوا.

- حقيقة الأمر.. أن واحداً من أصدقائي، وهو مراقب قناة...

- أعرف، قال «النبيل» ، ولم آت قبلاً للقائكم لأن اشتداد النقرس شلني في مقعدي ثلاثة أشهر، ولكني أمرت بأن يربطوا الكلاب مساء كل سبت، وصباح كل اثنين.

ولم أفهم في التو، وبلع أبي ريقه، وتقدمت أمي خطوة للأمام .

- لقد استدعيت ذلك الصباح نفسه مُطَهِّر القناة الذي يدعى، فيما أعتقد،

بوتيك» .

– بوزيج. قال أبي. إنه تلميذ قديم لي، لأنني معلم بالمدارس العامة، و..

– أعرف ، قال العجوز، هذا البوتيك قال لي كل شيء، عن كوخكم في التلال، ومسافة الترام القصيرة، والطريق الطويل، والأطفال، والأكياس.. ولهذا، قال وهو يتقدم خطوة تجاه أمي، فالسيدة الشابة تحمل حمولة فوق طاقتها.

وانحنى أمامها، كفارس. يطلب شرف دعوتها للرقص. وأضاف :

–«أتسمحين لي؟»

وأتبع ذلك، وبسلطة ملكية، بأن أخذ منها في يديه الصرتين ثم استدار جهة الحارس : «فلاديمير» ، قال خذ أكياس الأولاد .»

وفي طرفة عين. كان العملاق قد جمع في يديه الضخمتين كل الأكياس، واللفائف، والربطة التي بها المقعد المفكك، ثم أدار لنا ظهره، وركع فجأة على ركبتيه.

– «نط» قال لبول.

وبجرأة جسورة وثب بول وثبة، جثم بعدها على أكتاف العملاق الطيب الذي تحرك في التو مسرعاً. بحمحمة عجيبة.

واغرورقت عينا أمي بالدموع. وحار أبي جواباً.

– «هيا،، قال العجوز ، لن نعطلكم.

– ياسيدي، قال أبي، أخيراً، لا أعرف كيف أشكرك ، فأنا متأثر... متأثر للغاية...

– أنا أرى ذلك، قال العجوز مباشرة، وأنا سعيد بهذه المشاعر الطيبة.. . وعلى العموم، ما أوفره عليكم من عناء ليس كبيراً. فبمقدوركم المرور من

عندي، بهدوء شديد، وبغير أن يفسد شيء، فلست ضد ذلك، لأنه ليس بالشيء الكثير، ما اسم هذه الطفلة الجميلة؟

واقترب من الأخت الصغيرة، التي كانت أمي، تحملها على ذراعيها، لكنها راحت تصيح وتخفي وجهها بيديها.

– هيا، قالت أمي، ابتسمي للسيد...

– لا، لا،! صاحت... إنه شنيع! أوه لا !

– لديها حق، قال العجوز وهو يضحك – مما جعله يبدو أكثر قبحاً – لقد نسيت ببساطة أن أخفي هذه الندبة، التي سببتها ضربة رمح من مرتزق بروسي في غابة بالألزاس، منذ حوالي خمس وثلاثين سنة. ولكنها ما تزال بعد صغيرة على فهم فضائل المحاربين، تفضلي أمامي ياسيدتي، من فضلك، وقولي لها إن قطة قد خربشتني، فسوف تأخذ من ذلك درساً في الحذر، واصطحبنا على طول الممر وهو يتحدث مع أبي .

كنت أسير أمامهم، وكنت أرى من بعيد رأس بول الشقراء، تمر أعلى السياج، وخصلات شعره الذهبية تتطاير في الشمس.

وعندما وصلنا إلى باب الخروج، وجدناه جالسا، على أكياسنا، وهو يأكل التفاح الأخضر، الذي قطفه له العملاق .

وكان علينا أن نودع هؤلاء الطيبين، فصافح الكونت أبي، وأعطاه بطاقته وهو يقول : « في حالة ما إذا كنت غائبا، هذه البطاقة ستساعدك على المرور من البوابة، فلم يعد من الضروري الآن أن تمر من الجروف، وأرجوك أن تدق جرس الحديقة، وأن تعبر الأرض من الممر الكبير، فهو أقصر من طريق القناة» .

ثم، ولدهشتي الكبيرة توقف على مسافة خطوتين من أمي، وحياها، كما لو كان يحيي ملكة. وتقدم منها، ثم انحنى بكثير من التقدير والاعتداد، وقبل

يدها. وردت عليه بهيبة فتاة صغيرة، ثم هرعت محمرّة، إلى جوار أبي، فيما مرت بينهما خصلة ذهبية، فقد تقدم بول جهة الجنتلمان العجوز، ثم أمسك بيده الكبيرة السمراء، وقبلها طويلاً .

في المساء على المائدة، بعد الحساء الذي تناولناه في ضوء مصباح العاصفة، قالت أمي :

– جوزيف، أرنا البطاقة التي أعطاها لك.

ومد يده لها بالبطاقة الكرتونية ، وقرأت بصوت عال :

الكونت جان دي X ...

عقيد بفرقة المدرعات الأولى

وصمتت للحظة، كأنها ارتبكت .

– ولكن.. قالت.

– أجل، قال أبي . إنه هو بطل معركة ريشوفن.

‹› ‹› ‹›

ابتداء من هذا اليوم الذي لاينسى، صار عبورنا من القصر الأول يمثل عيدنا، لأيام السبت .كان البواب – وهو محارب عجوز آخر – يفتح لنا البوابة على مصراعيها ؛ وكان فلاديمير يظهر في التّو ويأخذ عنا حمولتنا، وكنا نذهب مباشرة حتى القصر لتحية العقيد.

فكان يقدم لنا حلوى عرق السوس، كما دعانا عدة مرات لتناول الحلوى.

وذات يوم أهداه أبي كتاباً (قديما بطبيعة الحال) وجده عند تاجر العاديات، كانت مزقه تقص القصة الكاملة، بالصور والخرائط، لمعركة ريشوفن، وكان اسم العقيد موضحاً فيه بمكان بارز ، وكان أبي، الذي كان يعتقد طيلة الوقت بأنه ضد العسكرية، قد برى ثلاثة أقلام، لكي يؤطر بألوان ثلاثة الصفحات التي حيا فيها المؤلف يقظة «الفرقة المدرعة الأولى».

واهتم المحارب العجوز كثيراً، بالتأكيد على حكاية المؤرخ الذي كان «مدنياً لم يمتط حصانا أبداً»، والذي شرع فور المعركة في كتابة تاريخها لكي يقص الحقيقة.

كل يوم سبت، كان يصطحبنا عبر حدائقه، وكان يقطف في طريقه باقة من الزهور الكبيرة، التي كان قد توصل لزراعتها بالتهجين من خلقه الخاص، والتي كان يسميها «زهور روي» وكان قصر «الجميلة والغابة النائمة» لايسبب لنا أي خوف، وكان أبي يقول ساخراً: إن لديه رغبة لقضاء الإجازة به، ومع ذلك، كانت أمي، تخشى أن توسوس عليه هذه الفكرة .

وقد حاولنا عدة مرات، أنا وبول أن نفتح نافذة الدور الأرضي، لكي نرى أصحابه المشلولين، حول الجميلة النائمة، لكن ضُلَف خشب الصندل كانت قوية وكثيفة، ومستعصية على مطواتي ذات النّصْل الحديدي الأبيض .

مع ذلك، وبإغماض عينه والنظر من شق، تمكن بول ذات يوم من رؤية طباخ عملاق محاط بثمانية مساعدين، كانوا متسمرين أمام خنزير بري مسفد، وعندما نظرت من الفتحة بدوري لم أتمكن من رؤية شيء، ولكن اللوحة التي وصفها لي كانت تشبه بالضبط رسما لفالفيران (وهو فنان معروف) مما جعلني أشم فوراً رائحة شواء قديم، وهذه الرائحة الغريبة للدخان القديم كانت لغزاً حيرني.

وكان القصر الثالث، قصر الموثّق، قد ظل بالنسبة لنا مكانا يدعو للحذر، فلم يكن ما به متوقعاً.

ذات يوم، ونحن نعبر، بلا أي عجلة، إنفرج الحاجز عن صوت قوي حانق روّعنا.

كان يصيح : «أنتم، هناك، أين أنتم ذاهبون؟ »

ورأينا فلاحاً في الأربعين من عمره يتقدم نحونا بخطوة سريعة، وهو يلوح بمذراة طويلة. كان شعره كثيفاً أجعد، وشاربه ضخماً أسود، منتفشاً كشارب القط.

كان أبي، منفعلاً، يتصنع عدم رؤيته ويكتب ملاحظة في دفتره الذي يحميه، لكن الرجل الذي كان في حالة هيجان حقيقي، جاء يعدو، وكانت يد أمي ترتجف في يدي، وغطس بول في العشب .

وتوقف هذا القاتل فجأة على بعد أربع خطوات منا، رافعاً مذراته، بأسنانها المدببة نحو السماء، بأعلى ما يستطيع، ثم زرع عصاتها في الأرض، ثم هز بعنف ذراعيه المفتوحتين، وتقدم ناحية أبي وهو يحرك رأسه حركات عنيفة، ومع ذلك تدافعت من فمه هذه الأقوال الطيبة : «لاتهتموا. فأصحاب القصر ينظرون، وهم في نافذة الدور الأول. وآمل أن ينفق العجوز قريباً، ولكنه سيظل هنا لمدة ستة أشهر أخرى».

ثم وضع قبضتيه على خاصرتيه، وأحنى صدره للأمام، وراح يتحدث تحت أنف أبي، الذي راح يتراجع خطوة خطوة.

—«عندما ترون هذه النوافذ مفتوحة، لاتعبروا من فوق الجرف. اعبروا من تحته، من الناحية الأخرى. عبر الطماطم ، أعطني دفترك، لأنه أراد مني أن آخذ

منك أوراق إثبات شخصيتك، وأن آخذ اسمك وعنوانك».

وأخذ الدفتر من يدي أبي، الذي قال ببعض القلق : «أنا أدعى...»

«أنت تدعي إزمينارد ڤيكتور، إثنان وثمانون شارع الجمهورية، أما الآن فستمضون مسرعين، لكي يقتنع هو بما أفعل.»

ومادّاً ذراعه، ومشيراً بسبابته. أرانا، بطريقة شرسة، طريق الخروج، وبينما نحن نسير مسرعين، وضع يده على فمه، وصاح : « ماحدث معكم هذه المرة لن يتكرر، لأنكم في المرة القادمة ستتعرضون للرصاص!»

وما إن صرنا في الأمان، على الناحية الأخرى من الحائط، توقفنا وقفة قصيرة، نهنئ فيها أنفسنا، ونضحك على راحتنا، وراح أبي، الذي خلع نظارته لكي يجفف العرق الذي سال على زجاجها، يعلن تنظيره للموقف :

—«هذا هو الشعب، فعيوبه ليست ناتجة إلا عن جهله. لكن قلبه أبيض كالخبز الطيب، ولديه وداعة الأطفال».

ورقصنا كلانا، بول وأنا في الشمس، ونحن نغني بسعادة شيطانية :

—«سوف يموت! سوف يموت!»

من ذلك اليوم، وفي كل مرة نعبر، كان الرجل ذو المذراة، الذي كان يدعى، دومينيك، يرحب بنا ترحيباً كبيراً.

وصرنا نمر دوماً من أسفل الجرف، على طرف الحقل، وكنا نجد دومينيك يعمل. كان يشتل الأعناب، أو يعزق للبطاطس، أو يضم الطماطم، فكان أبي يقول، وهو غامز بعينه علامة الاتفاق :

—«هذه عائلة أزمينارد تعبر، وهي تحييك».

وكان دومينيك يغمز بعينه بدوره، ويضحك طويلاً من الدعابة الدورية، ثم يصيح : «أهلا يا أزمينارد فيكتور!».

ويضحك أبي هو الآخر، وكانت العائلة كلها تصيح فرحة .

كانت أمي تهديه عندئذ علبة دخان لغليونه، وهي الهدية القاتلة التي كان يقبلها بلا كلفة، ثم كان بول يسأله : «هل مات؟»

– ليس بعد، يقول دومينيك، ولكن هذا سيحدث! إنه في فيشي، فهو لا يشرب إلا المياه المعدنية! ثم يضيف :

– هناك، تحت التينة، توجد سلة صغيرة من البرقوق من أجلكم.. فقط، أعيدوا لي السلة...

وفي المرات الأخرى تكون السلة ملأى بالطماطم أو البصل، وكنا نمر، في خط هندي، سائرين على العشب على ظلالنا التي تتطاول أمامنا تحت الشمس الغاربة .

ولكن كان يظل أمامنا قصرُ السكير والكلب المريض.

كنا عندما نصل أمام هذا الباب المغلق، نحرص على الصمت قبل أي شيء، بعد ذلك كان أبي ينظر من فتحة المفتاح، بتدقيق، ثم يخرج من جيبه مزيتة ماكينة الخياطة، ويسيل منها بضع نقاط على القفل، ثم يدخل المفتاح بلا أي ضجة ويديره ببطء .

عندئذ، كان يرفع الباب بيد حذرة، كما لو أنه يخشى حدوث انفجار، وعندما كان ينفرج الباب قليلاً، كان يمد رأسه في الفتحة، ويتنصت، ويتفحص بنظره الأراضي المحرمة. وكان يدخل في نهاية المطاف، ونحن نتبعه في صمت، ويغلق الباب بلا أي ضجة فتظل أمامنا أصعب المراحل .

مع ذلك، لم نقابل أحدا أبداً، لكن الكلب المريض كان وسواسنا الدائم.

كنت أفكر في أنه «لابد وأن يكون مسعوراً، لأن الكلاب لايمرضون بمرض آخر. وقال لي بول :«أنا لست خائفاً . انظر!» .

وأراني حفنة من قطع السكر، التي افترض أنه سيقذف بها للوحش حتى يشغله بينما يخنق أبي الحارس. وكان يحدثني باطمئنان شديد، ولكنه كان يسير على أصابع قدميه. وكانت أمي تتوقف للحظة، وقد شحبت تماماً، وأنفها بارداً، ويدها على قلبها. وكان أبي، الذي يتخذ مظهراً مرحاً لكي يستحث شجاعتنا، يعاتبها بصوت خفيض :

-«أوجستين، أنت مضحكة! فأنت ميتة من الخوف، ومع ذلك فهذا الرجل، لاتعرفينه.»

- أعرف ما يقال عنه!

- نحن لا يقال عنا عادة ما يتطابق معنا!

- قال العقيد لنا منذ فترة إنه عجوز مخبول.

- مخبول، هذا مؤكد، بما أن هذا التعس غارق في الشراب. ولكنه نادراً ما تجدين عجوزاً سكيراً شرساً. ثم . لو أنك تريدين رأيي، أنا متأكد أنه رآنا فعلاً عدة مرات، ولم يقل لنا شيئاً، لأنه يستخف بالأمر، فأسياده لايجيئون أبداً، ونحن لانقوم بأي أذى، فأي عائد يأتيه من الجري وراءنا، بساقه المتصلبة وكلبه المريض؟

- إني خائفة، قالت أمي، هذا ربما كان غباوة، ولكني خائفة .

- حسنا، قال أبي، إذا واصلت هذه المشاعر الطفولية، سأذهب أنا إلى القصر، وسأطلب منه بكل بساطة أن يصرح لنا بالمرور.

– لا، لا ، يا جوزيف! أرجوك... سوف أتحسن... فهو انفعال عصبي بسيط، وسأتحسن...

كنت أنظر إليها، وهي شاحبة تماماً، تتكور على الأزهار البرية، التي لم تكن تشعر بوخز أشواكها، ثم تتنفس بعمق، وتقول بابتسامة :

–«لقد عبرت الأزمة! هيا بنا!»

وكنا نسير، ويمر كل شيء كما يرام .

◇ ◇ ◇

مر شهر يونيو بغير آحاد، مما جعله يبدو في ناظري محاطاً بحائطين، كالممر الحبيس الطويل، المغلق، بباب فولاذي، هو باب امتحان المنحة .

كان هذا شهر « المراجعة العامة» ، التي قمت بها بحماس عاطفي، ليس أبداً حباً في العلم، وإنما مدفوعاً بزهو أن أكون البطل الذي سيدافع عن شرف مدرسة طريق الشارتريين.

هذا الزهو الذي سرعان ما تحول إلى تصنع. ففي خلال الفسحة، كنت أتمشى وحدي، إلى جوار الحائط، بوقار، ونظرة زائغة، وشفتي تتمتم، «مراجعاً ما حفظته» ، أمام أعين زملائي، الذين لم تواتهم الجرأة للاقتراب من المفكر – فإذا ما وجه لي الكلام واحد من المتهورين، أتصنع أنني قد سقطت من حالق قمم العلم، وأهبط بنظرة متأملة ناظراً إلى هذا اللّحوح، الذي يجري تأنيبه في التو بصوت خفيض من قبل «مشجعي» البطل .

هذه التمثيلية التي مثلتها بجدية الممثل، لم تكن بغير ذات قيمة، فأحياناً عند لعب أدوار الأبطال، يصبح المتصنع بطلاً حقيقياً. فقد أدهش تقدمي أساتذتي، وعندما جاء يوم الامتحان أبليت - بياقتي المزرة، ورباط عنقي المفتول، ووجنتي الشاحبة، وشعري الحليق - بلاء حسنا.

فالسيد المدير - الذي كان له رأي حصيف في التحكيم - قال لنا إن إنشائي كان «جيداً جداً» ، وإن الإملاء كان «على أفضل وجه» وإنهم أثنوا على خطي ولكني لسوء الحظ، لم أجب على كل المسألة الثانية في الحساب، التي كانت في حساب النسبة والتناسب .

كان «منطوقها» قد صيغ بشكل معقد جداً حتى استحال على المائتي تلميذ المتقدمين فهمها، عدا واحد اسمه - أوليفا، حصل بهذا الشكل على ترتيب الأول، وجئت أنا في ترتيب الثاني .

ولم أتعرض للتوبيخ، ولكن ذلك كان من شأنه إحباطي، وقد عبر ذلك عن نفسه باستنكار عام. إلى أن جاء السيد المدير، إلى الحوش وقرأ، في وسط مدرسيه، بصوت عال منطوق المسألة القائلة، ثم قال - نعم قال ذلك في حضوري - إنها من أول وهلة، متكلفة وغير مفهومة، أجل قال ذلك بنفسه .

وأكد الأستاذ بيسون إنها كانت مسألة من مسائل الشهادة الإعدادية، ورأت السيدة سوزان أن واضع هذه المسألة بالتأكيد لم يتحدث في حياته إلى أطفال، وأعلن السيد أرنو، الذي كان شاباً ونشيطاً، أنه يرى بوضوح في صياغة هذه المسألة، الطريقة المعقدة، والخداع البارع لمسائل «المرحلة الثانوية» واستنتج أن عقلاً جيداً ليس بمقدوره أن يجد حلها، وانتهى بأن هنأني على أنني لم أفهمها.

مع ذلك، خفت حدة النقمة العامة، عندما عرفت أن هذا الأوليفا لم يكن عدواً خارجياً، بما أنه كان تلميذاً، هو الآخر في المدرسة الابتدائية، بشارع

لودي، التي كانت زميلة لمدرستنا، وحلت فكرة أن الاثنين الأوائل معاً «من عندنا» ، بما أحال إخفاقي إلى نجاح.

أما أنا فكنت محبطاً على نحو عميق، وحاولت بدناءة أن أشكك في الانتصار الحاسم لأوليفا، قائلاً إن غلاماً بمقدوره أن يحل مسألة كهذه في النسبة والتناسب هو بالتأكيد ابن مزيف نقود .

هذه الفرضية الثأرية والمختلقة كانت محل قبول من بول بغبطة أخوية، فأخذت على عاتقي أن أشيعها في كل المدرسة، وكنت قادراً على فعل ذلك بالتأكيد، لو لم أنس كل ذلك، عندما وجدتني، دفعة واحدة، مفتوناً كمن خرج من نفق، بأننا على أعتاب الإجازة الكبيرة.

عندها اختفى من فكري، أوليفا، والمسألة، والمدير، والمدرسة الثانوية، بغير أن يخلفوا وراءهم أثراً. ورحت أضحك من جديد وأحلم، وأنا أعد ـ برجفة وسعادة ولهفة ـ للرحيل .

وكان هناك مع ذلك ما عكر الصفو، فلم يرحل العم جول والخالة روز معنا. وقد خلف هذا فراغاً كبيراً بالبيت. وخشيت أن يفقد فريق صيدنا قائده بسبب من غياب رئيسه. وهو غياب فضلاً عن ذلك جرى تبريره تبريراً ضعيفاً بسبب رحلة لهم في إقليم روسيُّون، لهدف وحيد هو أن يقدموا ابن العم بيير إلى العائلة الكريمة، التي تنتظره (كما قيل) على أحر من الجمر.

وكان «ابن العجائز» قد صار طفلاً سميناً جداً، يضحك لأي شيء، حتى ولو قرصة، وقد بدأ يتكلم فعلاً، ولأنه لم يكن قد تدرب بعد على نطق حرف الراء، نبهت خالتي روز إلى أنه من الخطر اصطحابه إلى هؤلاء الذين سيفرضون عليه فجأة اللُّكنة المريعة لأهل بربنيون .

وطمأنتني بأن وعدت وعداً قاطعاً أن تعود، قبل أول أغسطس، إلى حصننا

الجديد العزيز .

٭ ٭ ٭

وجاء أخيراً يوم ٣٠ يوليو، العشية الاحتفالية للحدث.

بذلت مجهوداً كبيراً لكي أنام، ومع ذلك تمكنت من الاستفادة منها بأن أتخيل مقدماً بعض حلقات الملحمة المتألقة التي كانت ستبدأ في الغد وكنت على يقين من أنها ستكون أجمل من العام السابق، لأنني صرت أكبر سناً وأقوى، ولأنني أعرف أسرار التلال، وانتابني شعور كبير بالعطف عندما فكرت في أن عزيزي ليلي، هو الآخر، لم يستطع النوم .

وانقضى كل صباح اليوم التالي في تنظيم البيت، الذي سنهجره لمدة شهرين، وأرسلوني إلى «بائع العقاقير» ، لكي أشتري كرات النفتالين التي نعثر عليها في جيوبنا مع مقدم الشتاء.

ثم رحنا نضفي لمسة أخيرة على الحقائب التي أعدتها أمي منذ عدة أيام، نظرا لأن ذلك كان أمراً يشبه العزال... وقد أعلنت هي أكثر من مرة أنه سيكون لا غنى عن استدعاء بغل فرانسوا، ولكن أبي، الذي ظل صامتاً طيلة الوقت، انتهى بأن كشف الحقيقة، فحالتنا المالية قد أنهكت بالمشتريات العديدة، التي تتطلبها رفاهية الإجازة، وأن إنفاقاً جديداً لأربعة فرنكات يمكن له أن يسبب لنا نوعاً من الخلل الخطير: «من الناحية الأخرى، قال، نحن أربعة، بما أن بول الآن صار يقوى على حمل ثلاثة كيلو غرامات على الأقل...»

– أربعة ! صاح بول، وهو شديد الاحمرار من الاعتداد .

– وأنا، قلت بحمية، أنا أستطيع أن أحمل على الأقل عشرة كيلوجرامات.

– ولكن ياجوزيف ناحت أمي، انظر ! انظر إلى هذه اللفائف، وهذه البقج، وهذه الحقائب! هل رأيتها؟ هل تراها؟

عندها راح أبي بعينين نصف مغمضتين، وأذرعة ممتدة أمامه، يغني بصوت خفيض :

عندما أغمض عيني أرى هناك

بيتاً صغيراً أبيض

في عمق الغابة ...

وبعد إفطار سريع، تم توزيع حلوانا بوزنها وحجمها بسرعة علينا، بما سمح لنا بالشروع في الرحيل الكبير بغير أن ندع شيئاً وراءنا. حملت أنا كيسين، كان بالأول قوالب الصابون، وبالثاني العلب المحفوظة، وأنواعاً مختلفة من اللحوم المقددة .

وتحت كل ذراع، علقت بمهارة بقجة، كانت تضم الأغطية، والملاءات، وأكياس المخدات، والفوط، وفي وسط هذه المفروشات الواقية، دست أمي كل الأشياء القابلة للكسر .

كان تحت إبطي الأيسر زجاجتا مصباح، وتمثال صغير من الجص، لراقصة عارية، ورجلها في الهواء .

وكان تحت إبطي الأيمن ملاحة كبيرة، من زجاج إيطالي (بفرنك ونصف من عند صديقنا تاجر العاديات) وساعة منبهة من حجم كبير (بفرنكين ونصف) كان عليها أن ترن بقوة لتعلن للصيادين موعد قيامهم، ولأننا نسينا أن نعطلها، ظللت أستمع، عبر الملاءات لتكتكة صفائحها.

وكنت قد حشوت جيوبي بعلب الكبريت وأكياس الورق التي تحتوي الفلفل، وجوز الطيب، والقرنفل، والخيط،والأبر، والأزرار، وأربطة الجزم، ومحبرتين مختومتين بالشمع .

وعلقنا على ظهر بول شنطة مدرسة قديمة، مليئة بعلب السكر، تعلوها مخدة ملفوفة في شال، فلم نكن نرى رأسه من الخلف.

وكان يحمل في يده اليسرى شبكة، خفيفة، ولكن حجمها كان لا بأس به، بها تموين، التيول، ونبات رعي الحمام، والشيح، وأعشاب القديسة جين، وقد تركت يده اليمنى فارغة، لاحتمال أن يجر بها الأخت الصغرى، التي تحمل عروسة على صدرها.

كانت أمي قد عقدت العزم على أن تحمل بنفسها حقيبتين من جلد صناعي، تحتويان فضياتنا (التي كانت من الحديد المطلي) وأطباق الخزف. وكانت هذه في مجموعها ثقيلة الوزن، وقررت أن أساعدها. فدسست في جيوبي نصف الشوك، ووضعت الملاعق في حقيبة بول، وستة أطباق في أكياسي، بغير أن تلاحظ .

كانت الزكيبة التّيرولية، منتفخة على نحو عجيب، وكل جيب من جيوبها المكرمشة كان يزن بالقطع أثقل من وزني.

ورفعناها معا أول الأمر على طاولة. ثم خطا أبي خطوة للأمام. وأدار ظهره للطاولة وانتفخ جنباه بشكل ملحوظ. عندما ربط وسطه بحزام المخلاة، الذي برزت منه مقابض خطافية، ورقاب زجاجات، وأشراش بصل، وفي حركتين ركع، على ركبتيه .

وانتهينا بأن تمكنا من تستيف هذه الحمولة على ظهره وأكتافه، وكان بول الصغير فاغراً فاه، مشنجاً يديه، وكامشاً رقبته بين عظام كتفيه، يرقب المشهد

الرهيب، متصوراً أنه سيفقد أباه، لكن جوزيف لم تسحقه الحمولة، وعندما سمعناه يربط الحمالات الجلدية، والمخلاة، بهدوء، ابتلع بول ريقه، وفي الصمت الكبير، سمعنا طقطقة ركبة، ثم طقطقة ركبة أخرى، ونهض جوزيف العظيم. وتنفس بعمق، وهز مرتين أو ثلاثة أكتافه لكي يسكن الأحزمة، وشرع يسير حول طاولة الطعام.

«تمام» قال ببساطة، ثم ، وبلا أدنى تردد، حمل الحقيبتين الكبيرتين، وكانتا ملآنتين بما توجب معه أن نشد على جوانبها بالحبال ثلاث لفات. وشد ثقلهما ذراعيه بوضوح إلى الأسفل، فبدوا كما لو أنهما استطالا، وقد استخدم هو بمهارة شديدة هذا المشهد لكي يزلق تحت إبطه بندقيته في غلافها الرث من الجلد الاصطناعي. ومن الناحية الأخرى ليزلق النظارة المعظمة البحرية التي أرهقتها بلا شك عواصف رأس هورن والتي كنا نحاول استخدام عدساتها كجلاجل نجلجل بها.

◇ ◇ ◇

كان من العسير جداً الصعود إلى مؤخرة الترام. كما لم يكن النزول سهلاً، ورأيت الكمساري يشد مرتين بيد متعجلة السير الجلدي للجرس، أثناء عمليات إنزالنا.

كنا مع ذلك في غاية السعادة، وتضاعفت قوانا بسبب الآفاق المشمسة للإجازة الكبيرة الطويلة، ولكن بالنظرة السريعة، كان موكبنا مثيراً للشفقة بحيث إن المارة كانوا يعرضون علينا مساعدتهم. وكان أبي يرفض ضاحكاً، ويحث الخطى ليرينا أن قواه أكثر بكثير من وزن أحماله .

رغم ذلك، أخذ سائق عربة مرح كان ينقل عزالاً حقيبتي أمي بغير أن يقول كلمة وعلقهما في مؤخرة عربته فراحتا تتأرجحان بانتظام حتى سور العقيد.

وقدم فلاديمير، الذي بدا في انتظارنا، لأمي الزهور الحمراء الطقوسية، وقال لنا إن سيده أرغمته نوبة نقرس على عدم مغادرة غرفته، ولكنه سيجيء قريباً ليفاجئنا بالزيارة في الحصن الجديد، وهو ما ملأنا بالسعادة، والفخر، والارتباك، وأورط فلاديمير نفسه في كل الأكياس والصرر التي لم تكن مربوطة على ظهور حامليها واستبقنا حتى بوابة دومينيك، التي كانت فيما قبل بوابة «الجميلة والغابة النائمة».

وبدا لنا العبور الثالث طويلاً، فلم يكن دومينيك موجوداً، وكل النوافذ كانت مغلقة.

وأخذنا راحة تحت شجرة التين الكبيرة، فأدار أبي ظهره إلى بئر، وأسند مخلاته التيرولية على سوره، ثم مرر يديه تحت الأحزمة، ودعك كتفيه طويلاً.

وعدنا للسير نشطين . ووصلنا أخيراً أمام الباب الأسود، باب القلق وباب الحرية . استرحنا مرة أخرى، في صمت، لكي نستعد للمجهود الأعظم.

— «جوزيف، قالت أمي، فجأة وهي شاحبة، إني أتوقع شيئا!» وراح أبي يضحك !

— «أنا أيضا ! قال، أتوقع أننا سنقضي إجازة رائعة! وأتوقع أننا سنأكل طيور السمنة المشوية، والدارناجات والدراج! وأتوقع أن يسمن الأطفال كل واحد منهم ثلاثة كيلوات زيادة ! هيا بسرعة ! لنواصل السير. نحن لم يكلمنا أحد مدة ستة أشهر، فلماذا سيكلموننا اليوم؟ وصب نقطة الزيت، وقام بالمناورة الاعتيادية، ثم فتح الباب على مصراعيه وانحنى لكي يمر بحمولته.

– «مارسيل، قال لي، أعطني أكياسك وامش أمامنا! لكي تطمئن أمك، فلابد من أخذ كل الاحتياطات الممكنة. إذهب بحذر».

وانطلقت كهندي من السيو على ممر الحرب. المتحصن تماما بالسياج، واستطلعت المكان . لاشيء، كل نوافذ القصر كانت مغلقة، حتى نوافذ شقة الحارس. وناديت الفصيلة ، التي كانت بانتظار أوامري :

– تعالوا أسرعوا!! قلت بصوت خفيف، الحارس ليس هنا!

وتقدم أبي، ونظر إلى الواجهة البعيدة، وقال : «هذا واقع الحال!»

– وما الذي يدريك؟ قالت أمي.

– قبل كل شيء من الطبيعي تماماً أن هذا الرجل يهجر القصر! فهو وحيد، وقد ذهب بالتأكيد ليتموّن!

– أما أنا، فما يقلقني هو أن تظل هذه النوافذ مغلقة. فهو ربما مختبئ وراء أحد مصاريعها ويراقبنا من ثقب.

– هدئي من روعك ! قال أبي: إن لديك خيالأمرهقاً. أراهن أننا يمكننا أن نغني في سيرنا، ولكن لكي نهدئ من روعك سنفعل كهنود الكومانش، «الذين يمرون بغير أن تتحرك من مرورهم أطراف أعشاب البراري».

ومضينا وراء بعضنا بحذر فائق وبطء حكيم، وكان أبي المسحوق تحت ثقل حمولته يتنفس بصعوبة، وتوقف بول لكي يلف حزمة من العشب على خيط كيسه، الذي قطع أصابعه، وكانت الأخت الصغرى، المتحيرة، صامتة هي الأخرى كعروسها.

ومن وقت لآخر، كان تضع سبابتها على فمها، وتقول بابتسامة «ششش» بعينين كعيني أرنب مطارد، وكان الشحوب الصامت لأمي يقبض قلبي، ورأيت

على البعد من أسفل الشجر، وراء الحائط، القمة الزرقاء للرأس المستدير، الذي سأنصب فيه فخاخي قبل حلول الليل، مع غناء الجدجد الوحيد، وكنت أعرف أن ليلي ينتظرني على أطراف قرية الكرمة، بهيئة غير مكترثة، ولكنه سيكون في جعبته الكثيرمن الأخبار، والمشاريع، والصداقة .

وعبرنا الممر الأخير، بلا عائق، وبالأحرى بلا تعكير، ووصلنا أمام الباب الأخير، الباب السحري، الذي سينفتح على الإجازة الكبيرة .

واستدار أبي جهة أمي ضاحكا : «حسنا...ماذا تتوقعين؟

– افتح بسرعة أرجوك...بسرعة... بسرعة ...

– لا تتوتري، قال فأنت ترين جيداً أن كل شيء انتهى!

وأدار المفتاح في القفل، وسحبه، وقاوم الباب. فقال فجأة بصوت عال :

لقد وضعوا سلسلة، وقفلاً!

– كنت أعرف ! قالت أمي..ألا تستطيع كسره؟

ونظرت، ورأيت أن السلسلة تمر بين رزتّين حلقيتين، إحداهما مسمرة بالباب، والأخرى في إطاره، الذي بدا لي خشبه قديماً متعطناً.

– «بلى، قلت، يمكننا كسره!»

لكن أبي أمسك بيدي قائلاً بصوت خفيض :

– «ياتعيس سيكون ذلك عدوانا!

– عدوان! صاح فجأة صوت مبحوح، نعم. عدوان! وهذا معناه ثلاثة أشهر في السجن!

ومن أكمة، قريبة من الباب، خرج رجل متوسط الحجم. ولكنه سمين

يرتدي زياً رسمياً أخضر وقبعة عسكرية، وقد تدلى من حزامه قراب من جلد أسود، تطل منه قبضة مسدس مرخص. وكان يمسك بسلسلة في آخرها رَسَن به كلب بشع، هو نفسه الذي ظللنا وقتاً طويلاً نرتعب منه. كان عجلاً له رأس «بولدوج» .

وبدت في جلده المحلوق الأصفر الكدر بقع كبيرة حمراء من أثر داء الثعلب، تشبه بقع الخرائط الجغرافية. وكان يرفع قدمه اليسرى الخلفية لأعلى، وهي ترتجف مختلجة ؛ وكان مشفراه السميكان، طويلين متدليين، يمد من استطالتهما خط سائل من اللعاب، ومن جانبي رأسه المخيفة، برز نابان، مستعدان لقتل الأبرياء. كان للوحش عين لبنية اللون، ولكن الأخرى كانت مفتوحة على اتساعها، تبرق بتهديد أصفر، على حين كان يخرج من أنفه الممخطة اللزجة من وقت لآخر زفير له شخير وصفير.

كان وجه الرجل بشعاً هو الآخر، فأنفه كانت مليئة بالثقوب، كالفراولة، وشاربه المائل للبياض من جهة، كان بلون ذيل البقرة من الناحية الأخرى، وكان جفناه السفليان يسجفهما رمشان كالأنشوجة المملحة ذات الوبر .

وصدرت عن أمي صيحة رعب، وأخفت وجهها في الزهور التي راحت ترتجف، وشرعت الأخت الصغيرة في البكاء، ووجم أبي، ولم يتحرك، واختفى بول وراءه، وبلعت أنا ريقي ...

وراح الرجل ينظر إلينا بغير أن ينطق كلمة بينما تعالت حشرجة الكلب.

—ياسيد، قال أبي ...

– ماذا تفعلون هنا؟ صرخ فجأة هذا الفظ.. من الذي سمح لكم بدخول أرض السيد البارون؟ ترى هل أنتم ضيوفه، أو من أهله؟

وراح ينظر لنا الواحد بعد الآخر بعينيه الجاحظتين اللتين تقدحان الشرر.

كانت بطنه تفز عندما يتكلم، فيتحرك فوقها المسدس، وتقدم خطوة نحو أبي: « ما اسمك ، أولا؟»

قلت فجأة : «أزمينار فيكتور»

– اخرس أنت، قال جوزيف، فليس هذا وقت المزاح .

وبصعوبة شديدة، بسبب حمولته، أخرج أبي محفظته، ومد له ببطاقته ونظر إليه هذا الفظ، ثم استدار ناحيتي :

– «ها نحن أمام شخص مدرب جيداً! إنه يعرف كيف يعطي اسماً مزوراً» ونظر ثانية للبطاقة، ثم صاح : «معلم عام! تلك مصيبة معلم يتسلل خفية في ممتلكات الغير! معلم! لعل هذه البطاقة مزورة أيضا. فعندما يعطي الأطفال أسماء غير حقيقية، من الطبيعي أن يقدم الأب بطاقة مزورة».

وتمكن جوزيف أخيراً من الكلام، فقدم مرافعة طويلة، تحدث عن «الفيللا» (التي أسماها كوخاً، بسبب الظروف)، وعن صحة أطفاله، والمشوار الطويل الذي يستنفذ أمي، وعن صرامة السيد مفتش الأكاديمية... كان صدوقاً ومؤثراً، ولكن بشكل ضارع. مما جعل الدم يصعد إلى وجنتي، وجعلني أشتعل غضباً، وقد فهم بالقطع مشاعري، لأنه قال لي وهو مضطرب : « لاتظل هنا، اذهب والعب بعيداً مع أخيك .»

– «يلعب بماذا، زأر الحارس. يسرق برقوقي؟ لا تتحرك، قال لي، وإلا سيعطيك الكلب درسا لن تنساه!»

ثم استدار جهة أبي :« أولا، ما هذا المفتاح؟ هل أنت الذي صنعته؟ »

– لا قال أبي بوهن .

وتفحص الفظ المفتاح، ووجد عليه علامة لا أدريها، فصاح :

- إنه مفتاح رسمي! لقد سرقت مفتاحاً رسمياً؟

- أنت تعرف جيداً أن هذا غير صحيح.

- إذن كيف حصلت عليه؟

وراح ينظر إلينا ساخراً. وتردد أبي ثم قال له في شجاعة :

- « لقد عثرت عليه»

وسخر الآخر أكثر : «عثرت عليه في الطريق. وعرفت في التو أنه يفتح أبواب القناة.. من الذي أعطاه لك؟

- لا أستطيع أن أقول لك.

- ها! ها! ترفض أن تقول! سأذكر هذا في تقريري، والشخص الذي أعارك هذا المفتاح لن يضع قدمه ثانية في هذه الأرض.

- لا، قال أبي بحمية: أنت لن تفعل هذا! فأنت لن تقضي على إنسان، بسبب طيبته، وصداقته...

- إنه موظف، جاهل! صرخ الحارس لقد رأيته عدة مرات يسرق تيني...

- لابد أنك مخطئ في هذا، قال أبي، لأنني أعرف أنه إنسان أمين!

- نعم، وقد أثبت لك هذا، سخر الحارس، بأن أعطاك هذا المفتاح الرسمي!

- «هناك شيء تجهله، قال أبي : فهو قد فعل هذا لمصلحة القناة. فأنا لدي بعض المعرفة بالأسمنت والملاط. فسمح لي بأن أرد له هذا الجميل، بمعنى ما، في صيانة هذا العمل الفني، وانظر بنفسك هذا الدفتر»

وأخذه الحارس وتصفحه: «إذن، هل أنت تعتبر نفسك هنا بصفة خبير؟»

- بمعنى ما، قال أبي .

– وهؤلاء أيضاً، قال وهو يشير علينا، خبراء؟ أنا لم أر أبداً خبراء، في هذه السن، ولكن ما أراه على كل حال، مكتوب هنا بالدفتر، وهو أنك تمر احتيالاً هنا كل سبت منذ ستة أشهر! وهذا إثبات ممتاز!

ووضع الدفتر في جيبه:

– والآن . افتح لي كل هذه اللفائف.

– لا ، قال أبي، فهذه أشيائي الخاصة.

– هل ترفض؟ انتبه جيداً، وضع في اعتبارك أنني حارس محلّف..

وفكر أبي لثانية، ثم أنزل كيسه، وفتحه.

– «لو رفضت هذا الآن، كنت سأذهب وأحضر لك الدرك»

وفتحت الحقائب، وأفرغت المخالي، وفكت الصرر، ودام هذا العرض حوالي ربع ساعة. فقد فرشت كل كنوزنا على العشب في كومة، كجوائز لعبة النيشان... كانت الملاّحة تلتمع ، والراقصة الصغيرة ترفع ساقها، والمنبه الكبير، الميقاتي الأمين، وهو يعلن تمام الرابعة عشرة، بحياد حتى مع ذلك الفظ الأبله الذي راح ينظر له بمظهر غير الواثق .

واستغرقت المراجعة وقتا طويلا، وكانت دقيقة . وأثارت وفرة الطعام غيرة هذا البطن.

–«يمكن القول ، قال بمظهر المتشكك، إنه سطو على بقال!»

وتفحص بعد ذلك المفروشات، والأغطية، بقسوة جمركي إسباني.

– الآن، قال، البندقية؟

– لا، قال أبي .

— هذا من صالحك.

وثنى الحارس الماسورة، وثبتها على عينيه كما لو أنها مجهر.

—«إنها نظيفة ، قال ، وهذا من صالحك أيضا»

وأغلق السلاح، بتكة كتكة مصيدة الفئران، وأضاف : « بهذا النوع من البنادق الرديئة، سهل أن تفشل في إصابة دجاجة، ولكنك يمكنك قتل حارس حارس لا يأخذ حذره...».

ونظر لنا نظرة قاتمة، رأيت فيها غباوة لانهاية لها، وفيما بعد، بالمدرسة الثانوية، عندما قرأت للمرة الأولى كلمة بودلير «الحماقة على جبهة الثور» فكرت فيه فلم يكن ينقصه سوى قرنين. ولكني أتعفف عن تلويث شرف النساء اللاتي حملن بمثله.

اتخذ فجأة مظهراً طيعاً، فقال : «أين الخراطيش؟»

— لم أصنعها بعد، قال أبي، فلست أصنعها إلا عشية افتتاح الصيد، بسبب الأطفال، فلست أحب اقتناء الخراطيش المعبأة في البيت.

— بالطبع، قال الحارس، وهو ينظر لي بقسوة. فعندما يعرف طفل كيف يعطي اسما مزوراً ويعرض خدماته من أجل تهشيم الأبواب، لا ينقصه إلا بندقية معمرة!

وشعرت بالزهو، من هذه الملاحظة، وكنت أفكر منذ عشر دقائق في القفز على حزامه، وانتزاع مسدسه وقتله بتلذذ، وأقسم أنه إن لم يكن لديه كلب ضخم،كان بمقدوره ابتلاعي قبل أن أنجح في ذلك، لكنت فعلتها.

وأعاد البندقية لأبي، وألقى نظرة شاملة على أشلاء أشيائنا المبعزقة

— «لا أدري قال بتشكك، إذا ما كانوا يدفعون جيدا في سلك التعليم!»

كان أبي يقبض ١٥٠ فرنكا بالشهر، ولكنه انتهز فرصة الإجابة ليقول :

«ولهذا أود أن أستمر في التعليم.»

– لو أنهم طردوك، قال الحارس، سيكون ذلك بسبب خطئك، فأنا لاأستطيع لك شيئا! أما الآن فستحملون حاجياتكم، وتعودون من حيث جئتم وأنا سأقوم بكتابة تقريري قبل نهاية النهار. هيا، تعال، ياماستوك.

وسحب الحزام وجر الوحش، الذي راح يتلفت نحونا، وهو يزمجر زمجرات يائسة، كما لو أنه يأسف على عدم ذبحنا .

في تلك الأثناء دق جرس المنبه كما لو أنه صوت طلق ناري. فصرخت أمي واهنة، وسقطت جالسة على العشب. واندفعت نحوها، فأغمي عليها بين ذراعي، واستدار الحارس، الذي كان على بعد خطوتين من السقطة، ورأى المشهد، فاستغرق في الضحك، وقال مغتبطاً :

– «أحسنت التمثيل، ولكني لا تخيل عليَّ هذه الأشياء!»

ثم ابتعد بخطوة غير ثابتة، ساحبا الحيوان الذي يشبهه.

٥ ٥ ٥

وأفاقت أمي سريعاً، فأثناء ماكان جوزيف يدعك لها جبهتها، راحت دموع وقبلات أولادها الصغار تساعدها على سرعة الإفاقة بأفضل مما تفعل الأملاح الإنجليزية .

وانتبهنا أن الأخت الصغيرة قد اختفت، وكانت قد اختبأت في كومة

بجيل، كأنها فأر مرعوب ؛ فلم ترد على نداءاتنا، وظلت ساكنة على ركبتيها، ويداها على عينيها.

بعد ذلك لملمنا لفائفنا، مبدلين، بالصدفة، أماكن اللحم المقدد، والصابون، والحنفية، وتحدث أبي بصوت خفيض : «ما أضعفنا، عندما نرتكب الخطأ! هذا الحارس خنزير خسيس، ونذل من أحقر صنف، ولكن كان القانون في صفه، وكنت أنا أسير احتيالي، كل شيء معي كان مخالفاً، زوجتي، وأطفالي، ومفتاحي... لقد بدأت الإجازة بداية عكرة، ولست أعرف كيف ستنتهي...

– جوزيف، قالت أمي فجأة منتعشة، إن ذلك لايعني نهاية العالم.

عندها قال أبي هذه الجملة الغامضة : «طالما أنني معلم، فنحن في إجازة، ولكن إذا حدث خلال ثمانية أيام، أن فصلت، فسوف أصير عاطلا...»

وشد على كتفيه أحزمة الزكيبة التِّيرولية .

كانت العودة حدادية، فقد لملمنا أكياسنا على عجل، وكانت تقع منها في الطريق أشياء مختلفة، ولأنني كنت أسير في المؤخرة، كنت ألم من على العشب مشطاً، أو علبة مستردة، أو مبرداً، أو كاشطة، أو فرشة أسنان .

ومن وقت لآخر، كانت أمي تقول بصوت خفيض : «كنت أعرف»

– ولكن لا، قال أبي مازحاً، أنت لم تعرفي، وإنما كنت تخشين، وكان لديك حق في الخشية، ولكن كان من الممكن أن يحدث ذلك في أي وقت. فليس في الأمر إبهام ولا توقع، وإنما ببساطة خطأ من جانبي، وشراسة من جانب ذلك الأبله.

وكان يردد بلا توقف : « ما أضعفنا عندما نكون على خطأ» .

وعلمتني الحياة أنه كان مخطئاً في ذلك، فنحن نكون ضعافاً عندما نكون

أنقيـاء، ووصلنا عند البـاب الأول للعـودة، وأضنتنا كـارثة جديدة، فـقـد كـان جوزيف، كعـادته، قد أغلق كل الأبواب بإحكام بالمفتـاح بعد مرورنا، لكن مفتاح الإجازة ولسوء حظنا، كان الحارس الفظ قد وضعه في جيبه ...

ووضع جـوزيف أكـيـاسه على الأرض وتفـحص الحـائط، وكـان هذا من الصعب عبوره، بسبب ارتفاعه العالي وبسبب قطع الزجاج المكسور التي كانت تلتمع من على قمته .

وعشنا لحظة يأس...

عندئذ فتح أبي أحد جيوب شنطته وسحب منها كماشة ميكانيكي. كان وجـهه مقطباً، ولكنه حـازم، ورحنا ننظر إليه في صـمت، وقد شعـرنا بشكل مبهـم، أنه سيقدم على أمور خطيرة .

وبالفعل ، نزل على المنحدر، ودخل إلى الكرم، وقطع ببرود، وبهدوء، قطعة من السلك المعدني، الذي يربط أعـمدة الحديد التي تسند العنب، ثم صنع من هذا السلك ما يشبه كلاّبة صغيرة، ورأينا بوضوح على وجهه إصرار وحنق من ليس لديه شيء يخسره، ومن كان شرفه قد خدش بشكل لايدانيه شيء.

واقترب من الباب ، وأدخل كلابة في القفل، وأغمض عينيه، وتقوس لكي يقترب بأذنه من الطقطقات الصادرة عن آلته... كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها لصاً هجاماً، أثناء عمله، وكان هذا المجرم، هو أبي!

أخـيـرا، وبعـد ثلاث دزينات من «الطقطقـات» غـيـر الفـاعلة، وعندمـا بدأ جوزيف يتوتر، حدثت «طقطقة» خشنة ومبهجة، وقادنا الباب المغتصب للممر.

ومشينا أمامه عدواً: «ليس هذا كافياً، فالمفروض إغلاقه!»

وعـمـل ثانيـة بضع دقـائق وطقطق المزلاج من جديد منغلقـاً. عندئذ نهض

جوزيف، وابتسم وجهه المتقلص، كما لو أن إعادة هذا الباب إلى ما كان عليه قد محت تماماً شعوره بالذنب .

ومشينا بجرأة حتى الباب التالي، ولأنه كان ينفتح على صداقة دومينيك، لم تضطرب اليد الأبوية، وانفتح المزلاج بأناقة شديدة، وخيل لي حتى أن جوزيف كان فخوراً، بحالة الهجام هذه، فقد غمز لنا بعينه غمزة قوية جسّمها ببسمة صغيرة وقحة. ثم قال : « أعتقد أننا كنا في حالة دفاع عن النفس، هذا الحارس له الحق في أن يتهمنا، ولكن ليس له الحق في أن يديننا... هيا نقص الحكاية لدومينيك، أعتقد أنه سيسدي لنا النصح»

لكن نوافذ المزرعة كانت مغلقة دوماً.. ودومينيك بالقرية طبعاً، يلعب مباراة في الكرات الحديدية، وعند العقيد، وجدنا فلاديمير، الذي استمع إلى حكاية أبي، الحكاية المختصرة بلباقة – وقال :

« أنا، أريد الذهاب لأقابل هذا الرجل، ولكني كلمته ثلاث مرات في حياتي، وضربته ثلاث مرات، فإذا ذهبت فسأضربه مرة أخرى، لذا يحسن أن أتحدث إلى العقيد. ولكن لسوء الحظ، هو في المستشفى. نعم، لقد منعني من أن أقول ذلك لأحد، لكني أقوله لكم الآن .

لقد عملوا له عملية جراحية، وغداً صباحاً، سأذهب لرؤيته، فإذا وجدته في حالة طيبة، سأقول له... ولكني لا أعرف إن كان سيقدر على فعل شيء...

– مع ذلك، قال أبي، فالمالك هو الآخر نبيل! فهو بارون...

– بالطبع لا! قال فلاديمير، لقد قال العقيد إنه ليس حقيقياً، فاسمه كاناسون، وعلى ما يبدو فهو تاجر لحوم كبير ...

ذات يوم، وعند خروجنا من الكنيسة، في فالنتين، جاء هذا الآخر يقدم نفسه لنا، قائلاً «أنا بارون القلعة» فقال له السيد الكونت : «لقد اعتقدت أنك

بارون المذبح» وانصرف الآخر دون أن ينبس بكلمة .

– بهذا الشكل، قال جوزيف، ليس لي أي أمل .

– هدئ من روعك، قال فلاديمير، لا يجب أن تقنط هكذا، تعال اشرب شيئا .. نعم، نعم، هذا سيرفع معنوياتك!

وضغط على أبي وأمي أن يشربا كأساً صغيرة من الخمر الممتاز، التي ابتلعاها بصعوبة كما لو أنها دواء، ثم جاء لبول ولي، بكريمة الكاكاو، بينما راحت الأخت الصغيرة تشرب بالسعادة كوبا من الحليب.

ورحلنا نشطين، ولكن في حالة شديدة من الشتات العقلي. كان أبي الذي دب فيه النشاط، ، بفضل جرعتين من الكحول، وبسبب تأثير ثقل الخلاة التِّيرولية يسير بخطوة عسكرية، ولكن نظرته كانت مقطبة، على وجه جامد .

وبدت أمي أمامي خفيفة كطائر، وكنا أنا وبول نجر الأخت الصغيرة التي كانت تمسكنا بذراعيها الصغيرتين، وتجرنا في الطريق المستقيم، وكان علينا أن نقوم بالالتفاف الكبير. وخلال كل هذا الطريق، لم ينطق أحدنا بكلمة.

ولم يستطع ليلي، بسبب نفاذ صبره، انتظارنا في مكانه، على طرف قرية الكرمة. وجاء لمقابلتنا، وقابلناه في التقاطع .

وصافحنا، وقبل بول، ثم، وبخجل شديد، أخذ أكياس أمي، وكانت تبدو عليه مشاعر العيد، لكنه بدا عليه القلق المفاجئ، وسألني بصوت خفيض :

– «ماذا حدث؟»

وأشرت له أن يصمت، وأبطأت الخطى.. لكي تفصلنا مسافة عن أبي، الذي كان يسير كالحالم.

عندئذ، وبصوت خفيض ، رويت له المأساة، ولم يبد عليه اهتمام كبير،

ولكن عندما ذكرت أمامه الاستجواب، شحب، وتوقف مذهولا:

– وهل كتب ذلك في دفتره؟

– قال إنه سيكتبه، وبالقطع، فعله.

وصفر صفرة طويلة من بين أسنانه، فالاستجواب، بالنسبة لأهل قريته، كان معناه الفضيحة والخراب، فقد حدث أنه قتل دركي من أوبان في التلال، على يد فلاح شجاع، لأنه رفض أن يخضع لاستجواب .

– « طيب، قال ليلي متأملا، طيب» وشرع في السير، برأس مطأطئة، ومن وقت لآخر كان ينظر لي بأسف وعندما عبرنا بالقرية، وفي مرورنا أمام صندوق البريد، قال لي فجأة :

– لماذا لاتتحدث لساعي البريد؟ فهو بالضرورة يعرف هذا الحارس، ثم إنه، هو الآخر يرتدي قبعة عسكرية.

وكان ذلك يعني النفوذ في اعتقاده، فقد ظن أنه فيما بين القبعات العسكرية، يمكن ربما إصلاح الأمور، وأضاف : «أنا سأحدثه غداً صباحاً».

ووصلنا أخيراً إلى الحصن، الذي كان ينتظرنا عند الغروب، تحت التينة الكبيرة الملأى بالعصافير . وساعدنا أبي على التخلص من كل أكياسه، وكان مكتئبا، يحك حنجرته من حين لآخر، وراحت أمي في صمت تعد اللحم المسلوق للأخت الصغيرة، أثناء ما أشعل ليلي النار تحت القدر بالمرجل .

وخرجت ، لكي أرى الحديقة، وكان بول قد سبقني إلى غابة الزيتون، وكانت الصراصير تنشنش في كل جيوبه، لكن جمال الليلة قبض قلبي، فلم يعد لدي شيء من الرغبة في الفرح الذي كنت في انتظاره .

ولحق بي ليلي، وقال بصوت خفيض : «لابد أن أتحدث مع أبي في ذلك»

ورأيته يرحل، ويداه في جيوبه، عبر كرمة أورجان .

۞ ۞ ۞

وعدت إلى المنزل ، وأشعلت مصباح البترول (بوز الماتادور) ، لأن أحداً لم يفكر في إشعاله، كان أبي، برغم الحر، جالساً أمام النار، ينظر إلى الشعلات المتراقصة. وكان الحساء قد اقترب من النضوج، والبيض المخفوق قد تكرمش على النار. وساعدني بول في إعداد المائدة، وقمنا بهذه العملية الطقسية بدقة وإحكام لكي نري أبانا وأمنا أننا لم نفقد كل شيء، ولكننا لم نكن نتحدث إلا بصوت خفيض، كما لو أنه كان هناك مأتم بالبيت .

أثناء العشاء، راح أبي ثانية يثرثر بمرح . وأعاد قص المشهد علينا بنبرة مازحة، فقدم وصفاً هزلياً للحارس، ولحاجياتنا المتناثرة على العشب، وللكلب الذي كانت به رغبة كبيرة في التهام السجق، وانفجر بول يضحك، لكني رأيت جيداً أن أبي قد ضغط على نفسه من أجل أن يسري عنا، وانتابتني رغبة في البكاء .

۞ ۞ ۞

وانتهينا من العشاء في عجلة، وصعدنا للنوم. ظل أبي وأمي في الأسفل، لكي ينتهوا من ترتيب المون. لكني لم أستمع لحركة منهما، فقط غمغمة أصوات مختنقة.

وبعد ربع ساعة، نظرت ووجدت بول نائماً، فنزلت حافياً بدون ضجة على السلم، واستمعت لمحادثتهما:

– «جوزيف، أنت تغالي، أنت مضحك، فهم لن يقطعوا رأسك بالمقصلة.»

– بالتأكيد لا، ، قال أبي، لكنك لا تعرفين مفتش الأكاديمية، فسوف يحول التقرير إلى رئيس الأكاديمية، وهذا قد يذهب إلى حد تقرير عزلي من الخدمة .

– هدئ نفسك! فليس في الأمر ما يدعو لجلد القطة.

– ربما، ولكن هناك بالتأكيد سبب كاف لعقاب مدرس بالتأنيب، وبالنسبة لي فإن هذا التأنيب يعادل العزل، لأنني في هذه الحالة سأستقيل. فنحن لانواصل عملنا بالأكاديمية، في ظل ثقل وجود لفت نظر بالملف .

– كيف؟ قالت أمي مندهشة، وهل تتخلى بهذا الشكل عن تقاعدك؟

كانوا كثيراً ما يتحدثون عن التقاعد، كما لو كان عملية سحرية معقدة، تحيل مدرس المدرسة إلى صاحب إيراد بلا عمل.. كان التقاعد، هو الكلمة الكبيرة، الكلمة الفاعلة، لكن في ذلك المساء، كانت الكلمة بلا مضمون، وهز أبي أكتافه محزوناً .

–«و ماذا ستفعل أنت؟

– لا أدري، ولكني سأفكر في الأمر.

– يمكنك أن تكون أستاذاً حراً من منازلهم، فالسيد فنسان يعيش بشكل جيد جداً من إعطاء الدروس.

– نعم، ولكنه لم يتعرض للوم. لقد حصل على تقاعده النسبي بعد مسار وظيفي لامع ... على حين أنني إذا عرف آباء تلاميذي الجدد أنني تعرضت

للوم، فسوف يصرفونني في التو.

كنت مغيظاً من هذه الحجج. التي بدت لي غير قابلة للجدال، فما الذي سوف يفعله؟ وسمعته يقول :

– سأذهب لمقابلة راسبانيتو، الذي يتاجر في البطاطس بالجملة. لقد كنا معاً في المدرسة سوياً، وذات يوم قال لي : «أنت قوي في الحساب، وأنا صارت تجارتي كبيرة بما يجعلني بحاجة لرجل مثلك» فأنا أستطيع أن أشرح له الموضوع، وهو لن يعاملني بشكل سيئ.

وبارك في التو اسم راسبانيتو. ولم أكن أعرفه، ولكني تخيلته عملاقاً بشارب أسود ، ضائعاً – مثلي– في عمليات الضرب، يعهد لأبي بمفتاح الدرج المليء بالذهب.

«نحن لا نستطيع دائماً، قالت أمي : الاعتماد على الأصدقاء.

– أعرف، ولكن راسبانيتو مدين لي بالكثير، لقد ساعدته في حل مسائل امتحان الشهادة. ثم سأطمئنك في الحال . أنا لم أقل لك هذا قبلاً، ولكني قمت ببعض الأعمال لمصلحة السكة الحديد، حصلت عنها على سبعمائة وثمانين فرنكاً، وهذا المبلغ وضعته داخل أطلس فيدال لا بلانش.

– غير ممكن ؛ قالت أمي هل تخفي عني أسراراً؟

– نعم، وذلك كان للحيطة، لحالات الاضطرار، عملية جراحية، مرض.. لقد فعلت ذلك بحسن نية! فلم أرغب أن تعتقدي...

– لا تعتذر، قالت، لأني فعلت نفس الشيء، ولكني لم أوفر سوى مائتين وعشرة فرنكات. وهي كل ما أمكنني توفيره من الخمسة فرنكات التي كنت تعطيها لي كل صباح.

وجمعت المبلغين معا في التو : ٧٨٠ و ٢١٠ ، هذا يساوي ٩٩٠ فرنك وفكرت في أنني معي سبعة فرنكات في حصالتي، وأنني أعرف، برغم كتمان بول، أنه يحوز على الأقل أربعة فرنكات. وهذا كله يساوي ألف فرنك وواحد. وأصابني الاطمئنان في الحال، وانتابتني رغبة عارمة في أن أقفز وأقول إننا لسنا بحاجة لأن نبحث عن عمل عندما نمتلك ألف فرنك .

لكن النعاس جاء ولطمني لطمة قوية، فصعدت السلم على أربع، ونمت من فوري .

في صباح اليوم التالي، لم أر أبي، فقد ذهب للمدينة، وافترضت أنه ذهب يقابل صاحبه تاجر البطاطس، الذي نسيت اسمه، وكانت أمي ترتب البيت، وهي تغني.

ولم يأت ليلي إلا متأخرا جداً، حوالي التاسعة صباحاً.

وقص علي أنه قال كل شيء لأبيه، الذي أعلن :

– «هذا الحارس، أنا أعرفه، فهو الذي وشى بموند دي باربيون عند مكتب التراخيص، لأن موند أخفى أربعة من طيور السمنة في قبعته المنفوخة، فغرموه أربعة فرنكات. وأنه لو حدث وأن جاء هذا الحارس لتلالنا، فلن ينتظر طويلاً حتى يصاب بطلقة بندقية يستحقها» .

كان هذا الخبر معزياً، ولكن هذه الطلقة كانت ستتأخر .

– « هل تحدثت مع ساعي البريد؟»

وبدا ليلي منزعجاً : «نعم، قال، وهو يعرف بالموضوع، لأنه شاهد الحارس هذا الصباح.

– أين ؟

– في القصر، فقد ذهب يوصل الرسائل.

– وماذا قال له؟

– كل شيء.

وبذل جهدا لكي يضيف : «فقد كان بصدد كتابة الاستجواب»

وكان نبأ مروعاً .

– «عندئذ، قال له الساعي ألا يفعل. فقال الحارس : «لن أتخلى عن الموضوع!» فقال له الساعي: «لماذا؟» فقال له الحارس لأن المدرسين يحصلون على إجازات كثيرة، عندها قال له الساعي إن أباك هو الذي صاد الحجل، فقال له الحارس، «طز» ثم استكمل كتابة الاستجواب، وقال الساعي إنه رأى بوضوح أنه يتلذذ بذلك» .

وأحنقني هذا السرد .

عند ذلك أخرج ليلي من خرجه أصبعين كاملين من السجق الأحمر، الأمر الذي أدهشني في البداية، ولكنه أعلمني في التو :

–« هذا سجق مسمم، أبي هو الذي صنعه ليضعه حول عشة الفراخ، في المساء، للثعالب، إذا أردت ، هذا المساء، ندهب ونقذف بهما من أعلى حائط القصر..»

– هل تريد تسميم كلبه؟

– وربما هو، قال ليلي بوداعة، لقد تخيرت أكبرها، لكي تفتح شهيته، فإذا وضع منها قطعة واحدة في فمه سيسقط هاويا كالقانون.

كانت فكرة لذيذة جعلتني أضحك من السعادة. ولكن موت الحارس،

الذي لن يكون نافذاً سوى بعد غد (إذا كانت لنا فرصة أو لم تكن)، لن يمنع الاستجواب من الوصول إلى الجهات المختصة... وقررنا مع ذلك الذهاب وقذف سجق الانتقام في نفس المساء.

في الانتظار، رحنا ننصب فخاخنا بوادي رابون، ثم ظللنا إلى الظهر نجمع اللوز الأخضر وثمار الغبيراء، من على الأشجار الملتوية في بستان مهمل، وأعطتنا أول جولة على الفخاخ ستة طيور من ذوي العجيزة الحمراء، وشحروراً كبيراً كورسيكياً.

على طاولة المطبخ، رصصت الطيور، وأفرغت مزودتينا، وقلت: كما لو كان كلاماً عابراً: « بالطرائد، واللوز، والغبيراء، والجذور البرية، والفطر، يمكن لعائلة فقيرة أن تحيا طيلة العام»

وتبسمت أمي برقة، وجاءت ووضعت قبلة على جبهتي، وهي مباعدة بيني وبين ذراعيها المفتوحين، الغارقين برغوة الصابون.

-« لاتقلق، ياعبيط، قالت، نحن لم نمت بعد»

وتغدى ليلي معنا وأجلسناه، - تشرفاً به - في مقعد أبي، الذي كانت عودته غير منتظرة إلا في المساء.

وتحدثت عن حياة الفلاحين، وأعلنت لو أنني كنت في محل أبي، لعملت مزارعاً. وأثنى ليلي - الذي في رأيي يعرف هذا العمل جيداً - على خصوبة وعدم إسراف الحمص الذي ليس بحاجة للماء. ولا للسماد، ولاحتى للطين، ويتغذى على بخار الجو، ثم أثنى على سرعة النمو المدهشة للفاصوليا البكورية.

- «تحفر حفرة صغيرة، ثم تضع الفاصوليا، في العمق، وتغطيها بالتراب، ثم تجري مسرعا! فإذا ما لم تسرع في الجري سوف تلحق بك».

ثم أضاف وهو ينظر لأمي:

–«طبيعي، هذا مغالى فيه بعض الشيء، ولكن لكي أقول إنها تنمو بسرعة»

في الساعة الثانية، رحلنا معا، واصطحبنا بول، المتخصص في انتزاع الحلزون المختفي في ثقوب الحوائط القديمة، أو جذوع الزيتون، وعملنا بلا توقف، لثلاث ساعات، لنكدس مؤنا، لمواجهة الخراب المقبل. وعدنا في حوالي الساعة السادسة. محملين باللوز، وبرقوق الغابة، والبرقوق البديع الأزرق المسروق من عند الأستاذ إتيين، وبمزودة مشمش شبه أخضر، جمعت من شجرة عجوز، تعاند منذ خمسين عاما، لتزهر في خرائب منعزلة لمزرعة مهملة .

كنت سعيداً بأنني سأقدم هذه الغنيمة ، قربانا إلى أمي حتى رأيت أنها لم تكن وحدها ؛ كانت جالسة في الشرفة. أمام أبي، الذي كان يشرب وهو يصب الماء في فمه، ممسكا بالقلة أعلى وجهه المرفوع باتجاه السماء .

وجريت نحوه.

كان يبدو منهكاً، وكان نعلاه مغطيين بالتراب، وقبلنا بحنان وربت على خد ليلي، وأخذ الأخت الصغيرة على ركبتيه، ثم تحدث مع أمي، كما لو كنا لسنا موجودين.

–«ذهبت إلى بوزيج. ولم أجده في بيته. فتركت له كلمة، أعلمه فيها بالكارثة، ثم ذهبت من فوري للمستشفى، وقابلت فلاديمير، كانت العملية قد أجريت للعقيد، والزيارات له ممنوعة، لمدة أربعة أو خمسة أيام، سيمكننا بعدها الكلام معه، ولكن سيكون ذلك بعد فوات الأوان .

– هل قابلت مفتش الأكاديمية !

– لا ، قال أبي، ولكني رأيت سكرتيرته.

– هل قلت لها؟

– لا. فقد اعتقدت أني جئت أبحث عن أخبار جديدة فأعلمتني أنني نقلت للتدريس للصف الثالث. وضحك بمرارة

–«وكم يضيف ذلك لمرتبك؟»

– اثنين وعشرين فرنكا بالشهر.

وتنهدت أمي، بسبب ضخامة هذا المبلغ، كما لو كانت ستبكي.

– « والأكثر، أضاف ، الأكثر أنها أعلنتني بأنني سأحصل على الجائزة الأكاديمية!

– انظر، ياجوزيف، صاحت أمي، هل تتصور أنهم يمكنهم عزل موظف حاصل على الجائزة الأكاديمية!

– بإمكانهم دائماً منع ترقية موظف ثم لومه... قال أبي وتنهد عميقاً، ثم راح، وجلس على مقعد، واضعاً يديه على ركبتيه، ومطأطئا رأسه .

وراح بول الصغير يبكي بصوت عال . في هذه اللحظة، قال ليلي بصوت خفيض :

– «من هذا القادم هناك؟»

ورأيت على أول الطريق الأبيض، بأعلى المنحنى ظلا قاتماً، ينزل باتجاهنا بخطوة حثيثة.

وصحت : «إنه السيد بوزيج»!

واندفعت باتجاهه، يتبعني ليلي .

ولاقينا مراقب القنوات في منتصف الطريق، ولكني رأيته ينظر إلى ما وراءنا. كان أبي وأمي قد اندفعا خلف أكعابنا، وكان بوزيج مبتسماً، واضعاً يده في

جيبه.

– خذ هذا ولا تتحدث، قال .

ومد يده لأبي بالدفتر الأسود الذي صادره الحارس، وزفرت أمي زفرة كادت تكون صرخة: هل أعطاه لك؟ قالت.

– لم يعطه! قال بوزيج . لقد قدمه في مقابل عدم تقديمي للاستجواب الذي قمت به معه .

– وتقريره؟ سأل أبي بصوت مبحوح قليلاً .

– صار مزقاً، قال بوزيج، كان قد كتب خمس صفحات. مزقتها له، وصارت جزءاً من مياه القناة... ثم أضاف بهيئة متفكرة، كما لو كان هذا الشيء شديد الأهمية، زمانها الآن في ناحية سان ـ لو وربما كانت في اللابوم... خلاصة الأمر ، هيا نشرب كأساً.

وغمز بعينه مرتين أو ثلاث، واضعاً كفيه على فخذيه، ثم انفجر في الضحك. فما كان أجمله!

في هذه اللحظة، سمعت ألفي صرصار، وفي نشيد جوقة النفاية هذه، قرض جدجد الإجازة غصنه الأول الفضي.

لم يكن لدينا نبيذ بالمنزل، ولم ترغب أمي في لمس الزجاجات المقدسة للعم جول، ولكنها كانت قد احتفظت في دولاب الغرفة بزجاجة «برنو» لإضافة الزوار الذين يشربون.

وتحت التينة، صب بوزيج، لنفسه كأساً كبيراً وقص علينا قصة لقائه مع العدو.

– ما إن قرأت كلمتك هذا الصباح، حتى ذهبت من فوري وبحثت عن «بينوسي» ، الذي هو مراقب قناة مثلي، «وفينستريل» ، النوافيري، وذهبنا إلى

القصر. وعندما أردت فتح الباب المذكور (أيتها الربة العذراء، شكراً لك!) وجدته لم يكن قد أزاح السلسلة، ولا القفل! عندئذ درنا حتى السور الحديدي العالي، ثم قرعت الجرس كخادم كنيسة. وبعد خمس دقائق تقريباً، جاء مذعوراً .

« هل أنت مجنون لكي تدق الجرس بهذه الطريقة؟ بالذات أنت!» قال وهو يفتح الباب: لماذا بالذات أنا؟

– لأن هناك مشكلة عويصة أنت غارق فيها لأنفك، وعندي أربع كلمات لأقولها لك.

– حسنا، تحدث فيما بعد، لأن ما سأقوله لك أنا، كلمتان فقط، وربما كلمة واحدة فقط، ممدودة في منتصفها بالألف، وهذه الكلمة هي : استجواب

عندئذ فتح عينيه على اتساعهما. نعم، حتى عينه الثانية، العوراء .

– هيا بنا أولا إلى مكان الحدث. قال فينستريل، لابد من تقرير الوضع، والعمل المقترف ومصادرة السلسلة والقفل .

– ماذا؟ صاح الحارس مندهشاً.

– « لاتصح، قلت له، أنت تخيفنا!»

ودخلنا. فقال لي :

– أريد أن أحدثك عن هذا القفل!

– ألست أنت الذي وضعته؟

– نعم ، أنا وهل تعرف لماذا؟

– لا ، ولست بحاجة لأن أعرف هذا حتى أستجوبك.

– المادة ٨٢ من القانون العرفي، قال فينستريل .

ونظر إلى كاسكيتاتنا نحن الثلاثة، وبدا عليه الخوف، عندها قال بينوسي بنبرة متساهلة :

– على العموم، لاتخش شيئاً. هذا لن يذهب بك للسجن، بل إلى البوليس فحسب. ولن تكون عاقبته أكثر من مائتي فرنك غرامة .

عندئذ، قلت بجفاف :

– ليحدث ما يحدث. ما أريده أنا، هو الإمساك بالأدلة ..

وتوجهت نحو باب القناة. وتبعني الآخرون، والحارس وهو يعرج.

وأثناء ما كنت أخلع السلسلة. كان وجهه قد احمر كالوردة البرية، فأخرجت دفتراً، وقلت :

– اسمك، واسم أبيك، ومحل ميلادك.

فقال لي : أنت لن تفعل هذا بي!

– ولكن ، قال فينستريل، لماذا تريد منعنا من المرور؟

– هذا ليس لمنعكم أنتم، قال الحارس.

قلت : بالطبع إنه ليس من أجل منع هؤلاء السادة، ولكن لمنعي أنا، أنا أعرف جيدا أن سحنتي لاتعجبك! حسنا، وأنت سحنتك لاتعجبني، ولهذا فسوف لن أتنازل للنهاية!

– أية نهاية – سألني

– « أنت أردت أن تجعلني أخسر وظيفتي ؛ فحسنا، طز إذا خسرت وظيفتك أنت الآخر، فعندما يتسلم صاحب عملك أوراق المحكمة، وعندما يجد أن عليه الذهاب للمحكمة، سيفهم ربما أن من صالحه تغيير الحارس، وأتمنى

أن يكون الحارس الجديد متحضراً عنك»

– وأصبح يا أصدقائي، شخصاً مذعوراً، فواصلت : اسمك، واسم أبيك، ومحل ميلادك.

– ولكن أقسم لك أن هذا لم يكن من أجلك! بل كان لمنع الناس الذين يمرون في هذه الأرض بمفتاح مقلد .

عندئذ اتخذت هيئة صارمة، فقلت :

– هو هو ! مفتاح مقلد؟ بينوسي، هل سمعت هذا؟ مفتاح مقلد!

– خذ، ها هو!

وأخرجه من جيبه، فأخذته في التو، وقلت لفينستريل :

–احتفظ بهذا، سوف نقوم باستقصاء، لأن هذا موضوع يخص القناة، ثم وجهت له الحديث، هل أمسكت كذلك بكل هؤلاء الناس؟

– طبعا، قال ،خذ، هذا هو الدفتر الذي صادرته مع هذا الشخص، وهذا تقرير لإدارتك، وهذا هو الاستجواب الذي قمت به!.

ثم أعطاني دفترك وتقريرين من عدة صفحات، قص فيهما القصة. وبدأت أقرأ خربشاته، ثم قلت له فجأة :

– تعيس! مسكين تعيس : في تقرير رسمي، تعترف بأنك وضعت سلسلة وقفلاً على الباب الرسمي! ولكنك لاتعرف أنه حتى في ظل حكم الملك لويس الرابع عشر، كنت تذهب بسبب ذلك للسجن؟

قال بينوسي : « هذا ليس انتحاراً، ولكنه نادراً ما يحدث!»

وصار الحارس في حالة يرثى لها، فلم يعد بعد أحمر الوجه كالوردة البرية، بل صار شاحباً كاللفت، وقال لي : « إذن ، ماذا سوف تفعل؟»

وهززت رأسي عدة مرات، وأنا أعض على شفتي، وتشاورت مع فينستريل، ثم مع بينوسي، ثم فكرت، وانتظر ، بهيئة شرسة، ولكن خائفة، فقلت له أخيراً:

- « اسمع، هذه هي المرة الأولى، ولكن على أن تكون الأخيرة... لن نتحدث في هذا الأمر ثانية، وأنت، بالذات، لاتتعرض أبداً لأحد، إذا أردت الحفاظ على قبعتك ووظيفتك».

أعقب ذلك، أن مزقت تقاريره، ووضعت الدفتر في جيبي، مع القفل والسلسلة وفكرت في أنكم ربما تحتاجون هذه السلسلة وهذا القفل في الريف هنا. ووضع أسلابه على المائدة .

كنا جميعا في أوج فرحنا، وقبل بوزيج أن يظل معنا للعشاء . وبينما هو يفرد فوطته ، أعلن : إنها قصة انتهت، ولكن مع ذلك، قد يكون من المستحسن ألا تمروا من هذا الطريق.

- هذا أمر بديهي. قال أبي.

قالت أمي، التي كانت تضع الطيور في الأسياخ، بصوت خفيض : «حتى لو أعطونا تصريحاً، فلن تكون عندي أبداً الشجاعة لأن أرى هذا المكان فرؤيته ستصيبني بالإغماء»

استأذن ليلي، وقبلته أمي، فاحمرت أذناه كعرف ديك، وخرج بسرعة من صالة الطعام، وكان عليّ أن أجري وراءه، لأقول له إنني سأنتظره، غداً صباحاً، منذ الفجر، فقال لي «نعم» بهزة من رأسه، واختفى في ليل الصيف .

كان العشاء شديد المرح، وعندما اعتذرت أمي لعدم وجود نبيذ، أعلن بوزيج: « لايهم. سأستمر في تناول البرنو» .

وجازف أبي، ببعض الخجل قائلاً : «أنا لا أريد أن تتصور أني أبخل عليك بهذا الكحول الذي تشربه، ولكني لا أدري ما إذا كان ضاراً بصحتك...

– الصحة ! هتف بوزيج متعجباً... ولكن يا أستاذي العزيز جوزيف، هذا أقل الأشياء ضرراً! أنت هنا تشرب ماء الصهريج فهل تعرف ما الذي بداخله؟

– إنه ماء السماء، قال أبي، فهو الماء الذي قطرته الشمس .

– أراهنك، قال بوزيج، أنه في صهريجك، سوف تجد دزينة عناكب سوداء، وسحليتين ، أو ثلاثاً، وعلى الأقل ضفدعين أسودين... ماء الصهريج، إنه خلاصة بول الضفادع! على حين أن البرنو، يشفي كل شيء!

ولم يلح أبي.

وأثناء تناول العشاء، قص طويلاً مغامرتنا، التي رد عليها بوزيج بقصة جديدة عن مأثرته، ثم أضاف أبي من جديد تفاصيل، لكي يوضح الشراسة التي أظهرها الحارس ؛ مما دفع بوزيج ليجيب مركزاً على ذعر وضعف هذا الشرير، الذي أرهبه أصحاب الكاسكيتات الثلاثة. وعندما قصا الرواية الرابعة لهذه الأهزوجة، أوضح لنا أبي أن الحارس كان بمقدوره أن يصرعنا لتونا، ونفحنا بوزيج بأن الوحش قد ركع على ركبتيه، ووجهه تغمره الدموع، وهو يطلب «الغفران» بصوت طفل .

بعد حلوى الكريمة المخفوقة، جاء دور البيض المخفوق، والبسكويت، وشرع بوزيج، بمظهر الملهم، يحكي لنا مآثر أخته، وشبّه الحياة أولا بسيل، لا بد من عبوره بالقفز، من صخرة لأخرى، بعد الحساب المضبوط للقفزات.

فيلسيين، قال تزوجت أولا من لاعب كرات «محترف» كان يهملها كثيراً بحثاً عن انتصاراته في اللعب، وأثناء حديثه هذا سمعت لأول مرة كلمة (كوكو)، ومعناها زوج مغفل بالفرنسية».

من هنا ، قال بوزيج ، قفزت على صخرة تالية، كانت عبارة عن رئيس مخزن ترام، ثم على صاحب مكتبة بشارع روما، ثم على صاحب محل زهور

من الكانبييه، كان مسؤول بلدية محليًا، ثم على المستشار العام، وهي تسعى الآن وراء قفزة أخيرة، هي النقلة الشاملة، لذراعي السيد المحافظ .

كانت أمي تسمع باهتمام قصة هذه الرحلة ولكنها بدت مفاجأة بعض الشيء فقالت فجأة :

– ولكن هل الرجال حمقى إلى هذا الحد؟

– هو هو ! قال بوزيج، هم ليسوا حمقى أبداً، فقط هي تعرف كيف تتصرف!

وأضاف، أنه فضلا عن ذلك، فالذكاء ليس كل شيء، وأنها كان لديها، شرفة غريبة، وأنه يجب أن نراها لكي نصدق! ثم أخرج حافظته، ليرينا صورة أعلن أنها «مغرية جداً» وفتحنا أنا وبول عيننا على اتساعها، ولكن في نفس اللحظة التي أبرز فيها هذه الوثيقة الهامة، أمسكت أمي بنا من أيدينا واقتادتنا لغرفتنا .

وعملت دسامة العشاء، والفرحة التي سببها لي اندحار الحارس، وغموض هذه الصورة على إرباك نومي، فحلمت حلماً متقطعاً، بامرأة شابة عارية كأنها تمثال، تعبر القناة بقفزة واحدة، وتسقط على جنرال يشبه أبي، راح يصيح في ضجة شديدة.

وظللت ساهداً، زائغا بعض الشيء، وسمعت عبر السقيفة صوت أبي، يقول:

– سوف تعدني بأن تأسف على أن في هذا العالم تجري مكافأة النقص في معظم الأحيان»!

‹› ‹› ‹›

مضى الوقت، وأدار عجلة الحياة كماء الطواحين.

بعد خمس سنوات من ذلك، كنت أسير خلف عربة سوداء، كانت عجلاتها عالية ترى من ورائها حوافر الخيل، كنت أرتدي الأسود ، وكانت يد بول الصغير تشد على يدي بكل قواها إذ ذهبت أمي للأبد

ولست أذكر شيئاً آخر، عن ذلك اليوم المرعب، كما لو أن أعوامي الخمسة عشر رفضت التعايش مع حدثٍ كان بمقدوره أن يقتلني، ومع مرور الزمن، وحتى بلغنا مبلغ الرجال، لم تواتنا الشجاعة أبداً للحديث عنها .

ثم صار بول الصغير عملاقاً. فقد فاقني في الطول، وصارت له ذقن نحيلة، تتصل بسوالفه، ذقن من الحرير المذهب، وقد ظل مقيماً في عراء التلال، التي رفض نهائياً مغادرتها، وقد ربى قطيع ماعزه، فكان في المساء، يصنع الجبن في غرابيل من نبات الأسل المجدول، ثم كان ينام على حصى الأعراش، ويتقلب في معطفه الكبير، وصار بهذا الشكل آخر رعاة الماعز الذين تحدث عنهم فيرجيل ولكنه في سن الثلاثين، توفي في إحدى المستشفيات. وظلت على طاولة السرير آلته الهارمونيكا.

ولم يسر معي وراءه ليلي العزيز لمقبرة قرية الكرمة الصغيرة، لأنه كان هناك بها ينتظره منذ أعوام، تحت مربع رخامي من مربعات الشهداء، ففي ١٩١٧ ، وفي غابة سوداء في غابات الشمال، صرعت شبابه رصاصة أصابت رأسه فسقط تحت المطر، فوق نتف متلبدة من نباتات باردة لم يكن يعرف اسمها...

وهذه هي حياة البشر، بعض الفرح، سرعان ما تمحوه أحزان لاتنسى،

أحزان ليس من الضروري الحديث عنها للأطفال .

◊ ◊ ◊

مرت عشرة أعوام أخرى، وأسست في مرسيليا شركة للأفلام، وتوج النجاح هذا المشروع، فتملكني الطموح لكي أبني ، تحت سماء الريف، «مدينة السينما» ، وكلفت «سمسار عقارات» ، بأن يبحث في الريف عن «أرض» كبيرة تتسع لهذا المشروع الجميل .

ووجد لي ضالتي بينما كنت في باريس، فحدثني تليفونيا، وأخبرني بما وجد، ولكنه أعلمني في نفس الوقت أنه يجب إتمام عقد الشراء خلال عدة ساعات، لأنه يوجد مشترون آخرون.

وكان فرحه كبيراً، وكنت أعرفه أميناً، لذا اشتريت هذه الأرض بغير أن أراها.

بعد ثمانية أيام، غادرت قافلة صغيرة للسيارات استوديوهات برادو وقد حملت عمال الصوت، وعمال المناظر، ومهندسي المعامل. وذهبنا نضع يدنا على الأرض الموعودة، وكان الجميع يتحدثون في آن معا أثناء الرحلة .

ودخلنا من باب حديدي عال. كان مفتوحا على مصراعيه.

وفي نهاية ممر من أشجار الدلب العجوز، توقف الموكب أمام قصر ، لم يكن موقعا أثرياً، ولكنه كان المقر الكبير لبرجوازي عظيم من الامبراطورية الثانية، كان معتداً بطوابقه الأربعة المثمنة الأضلاع، وبشرفاته الثلاثين، من الحجر المنحوت التي تزين كل الواجهات...

ونزلنا في التو للبراري التي كنت قد عزمت على أن أبني فيها الاستوديوهات.

ورأيت رجالاً يفردون سلاسل المسح الأرضي، وآخرين يدقون الأعمدة المدهونة بالأبيض، ونظرت بزهو لمولد مشروع عظيم، حين رأيت من بعيد، ومن أعلى منحدر. سياجا مشجراً... وتوقفت أنفاسي بغير أن أعرف السبب، وانطلقت في عدوٍ مجنون عبر البراري والزمن.

أجل ، كانت هنا، كانت هي قناة طفولتي، بزعرورها، وياسمين البر،

وأشجار نسرينها المحملة بالزهور البيضاء، ونجيلها الذي يخفي أشواكه تحت الحوائط الكبيرة الخشنة... وعلى طول الممر المعشب، كان الماء يسيل بلا ضجة، بشكل أبدي، وجرادات الماضي، تتدفق كالرشاش، محيطة بخطواتي. ورحت أحدد ببطء طريق الإجازة، وأستدعي الظلال العزيزة التي كانت تسير إلى جواري .

وعندما تمكنت من تحديده عبر المنحدر، أعلى شجرات الدلب البعيدة التي تعرفت فيها على القصر المخيف، قصر الخوف، خوف أمي .

وأمّلت للحظة، في أنني سوف أقابل الحارس والكلب، ولكن ثلاثين عاما، كانت قد التهمت رغبتي في الانتقام ، لأن الشر قد مات أيضا.

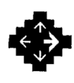
وتبعت الحافة، وكانت دائما «مصفاة» ولكن بول الصغير لم يكن هنا ليضحك بأسنانه اللبنية الجميلة...

وناداني صوت من بعيد، فاختبأت وراء السياج، ثم تقدمت بلا ضجة، كما كنا نفعل في الماضي... ورأيت أخيرا الحائط المعشق بالزجاج، من وراء شرفة الحافة العليا ، كان شهر يونيو يتراقص على التلال الزرقاء، ولكن أسفل الحائط، وبالقرب من القناة، كان هناك الباب المهول الأسود، هذا الباب الذي رفض أن ينفتح للإجازة، باب الأب المهان...

وفي نوبة غضب أعمى، أمسكت بيدي الاثنتين حجرا ضخما، ورفعته أولا عاليا، ثم قذفته باتجاه الألواح العطنة فانهارت من فورها فوق الماضي.

وخيل لي أنني صرت أتنفس بشكل أفضل، لأن السحر الأسود قد أبطل .

ولكن، بين ذراعي شجرة نسرين، وتحت عناقيد الزهور البيضاء، وعلى الناحية الأخرى من الزمن،كانت امرأة شابة سمراء، تضم إلى صدرها، منذ سنوات، وإلى قلبها الضعيف، زهور العقيد الحمراء. وهي التي سمعت صرخة الحارس، واللهاث الأجش للكلب، فاصفر وجهها، وارتعدت ، ولن يكون لها عزاء أبدا، فهي لا تعرف أنها كانت تمر في أرض ابنها .



صدر في هذه السلسلة :

(٣٢) أبعد من زنجبار ❖ محمد الحارثي

(٣٣) أناهيد ❖ محمد يوسف

(٣٤) فضاء المرائي ❖ عبد الله السمطي

(٣٥) المشي أطول وقت ممكن ❖ إيمان مرسال

(٣٦) فحم التماثيل ❖ محمد عيد إبراهيم

(٣٧) فوضى لا أتقنها ❖ محمد عباس

(٣٨) تشكيل الأذى ❖ ميسون صقر

(٣٩) بريق الرماد ❖ مسر رمزي

(٤٠) مجد أبي ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ١)

(٤١) قصر أمي ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٢)

(٤٢) زمن الأسرار ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٣)

(٤٣) زمن الحب ❖ مارسيل بانيول (ذكريات طفولة ٤)


مطابع انترناشيونال برس ت : ٣٤٧٤٢٥٩



هذه القصة حقيقية، لكنها حدثت منذ زمن بعيد عندما كان أجدادكم مازالوا بعد أطفالاً... في تلك الفترة التي كانت حقبة للحناطير والعربات التي تجرها الجياد، والتي كان يحدث فيها عند مرور سيارة ميكانيكية، وعلو صوتها من بعيد... أن تشد الشكائم على أسنان الجياد، ويهرع الناس للاختباء وراء أبوابهم،... أقول هذا لكي أوضّح لكم أن العالم يتغير بسرعة...

لكن هناك شيء لايتغير في هذا العالم أبداً، وهو حب الأطفال لأمهاتهم، وقد كتبت هذا الكتاب لكي أعلم الفتيات الصغيرات كيف سيحبهن أبناؤهن ذات يوم...

مارسيل بانيول



سلسلة كتاب شرقيات للجميع (٤١)